إِمِلي نَصْرالله

اليَنْبُوع

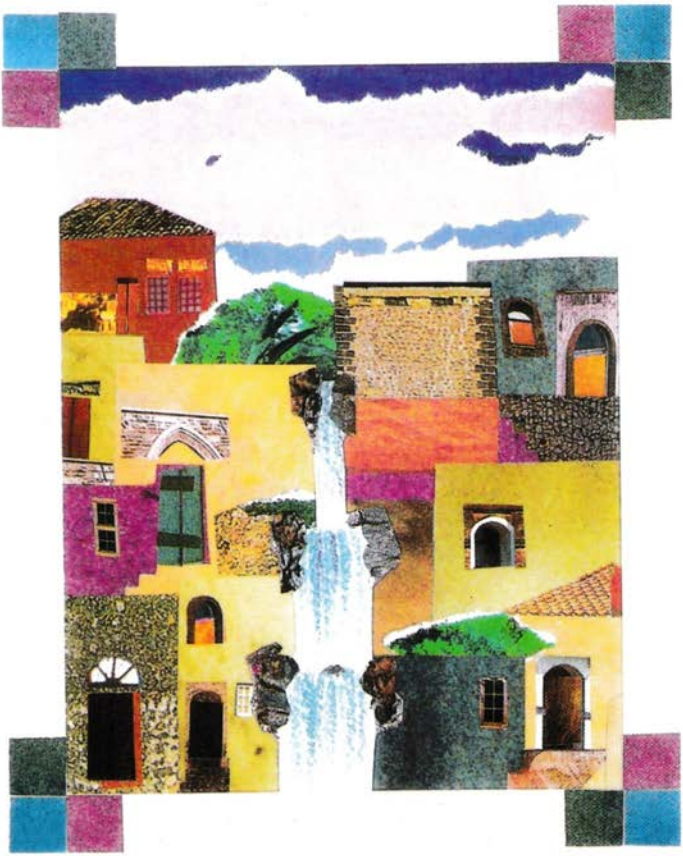

نوفل

مكتبة

اليـنْبُوع

إهداء لـ.. زاي والنجوم

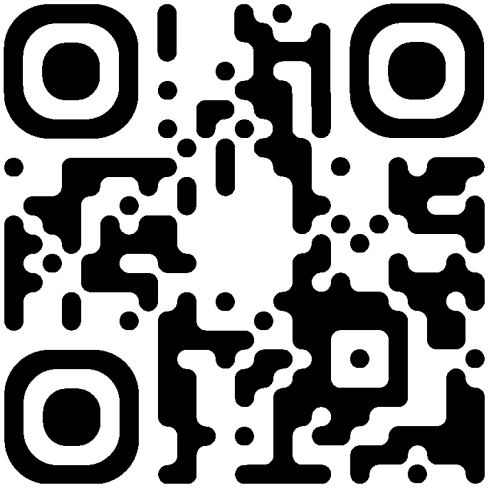

إميلي نصرالله

الينبوع

مجموعة قصص

مكتبة
t.me/soramnqraa

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

الطبعة الخامسة
صدرت عام 2014 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2012
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

مكتبة
t.me/soramnqraa

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**

طباعة: **مطابع روحانا الشمالي**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-031-4

الينبوع

إذا كنّا لا نزال أحياء فلأنّ الينبوع يتدفّقُ في قريتنا كلّ عام...

وإذا ارتعشَ النورُ في عيوننا فلأنّنا نشرب، مرّة في السنة، ماء ينبوعنا ونرتوي.

وإذا لاحظتَ أنّ قلوبنا مفعمة بالإيمان، فلأنّنا نعيشُ، من عام إلى عام، على أمل الوصول إلى ذلك الينبوع.

حكايتُنا معه غريبة.

إنّها أقربُ إلى الأسطورة. ولكن، ما هي الأساطير؟ أوَليستْ نماذجَ من حيوات، تسردها جماعة من الناس، بإيمان، ويعيشونها في أذهانهم وحواسهم؟

وإذا حاول أحدنا أن يفصل بين الواقع والأسطورة، فأيّ مبضع يستخدم للوصول إلى ذلك؟ وأين يجد الحدَّ الفاصل؟

حياتُنا على الأرض، أسطورة. والقوم الذين أَسرُدُ حكايتَهم هنا، يعشقون الأساطير، نشأوا على أخبارها، وهم يعيشونها بكلّ أبعادِها، ويَفْدونَها، أحيانًا، بالدماء.

ولو عايَشْتَ أولئك القوم بعض الوقت، لصدّقت أنّ الحكاية التي أرويها واقعيّة، ولو تدثَّرت بثوب أسطورة.

أرى أبطالها الآن، أمامي، يخاطبونني، يتمشّون في دمي، وفي عينيّ، وأحيانًا يقترب مني شيخٌ متقدم بينهم، فيهمس في أذني كلمات عتاب.

يعاتبني لاستغلالي طيبتهم وحسن ضيافتهم؛ أو يؤنّبني لأنّي أسأت فهم مقطعٍ من الحكاية، فجاءت محرّفة.

وأرفعُ عينيّ إلى الشيخ، أطلب عَفْوَهُ عن خطأ غير مقصود، وأقنعه بأنّي غريبة عن دنياهم، سائحة، أمرّ مرورًا خاطفًا، ولا يتّسع وقتي للإقامة الطويلة بينهم لأستطيع أن أفهم كلّ شيء.

ويهزّ الشيخ رأسه، غافرًا، ثمّ يتوارى ويُخَلِّفني مع الحكاية.

يتركني حائرة من أين أبدأ والليلة تقترب، والينبوع يوشك أن يفجّر عروقه في عينيّ، والقرويّون ينتظرون طويلًا تلك الليلة: يحلمون بها في مواسم الحصاد والشمس تلهب ظهورهم ورقابهم، وتجفّفُ الريق في حلوقهم... ويحلمون بها عندما يحلّ الخريف، ويقلبون بطن الأرض بسواعدهم المفتولة، يغرسون مع كلّ حبّة صلاةً مؤمنة. ويلمَحُون طيفَها كلّما هبَّت عواصف الخريف ووقفوا وسط السهول يراقبون الأوراق تنسلخ عن أمّهاتها لتعود إلى الأرض.

مرّة واحدة في السنة يتفجّر الينبوع.

يحدث ذلك عند انتصاف الليل، وحين يشتدّ قصف الصواعق وتهدر الرعود، وتشتعل السماء بالبرق.

حياتهم، على مدار السنة، تدور ضمن دائرة تلك الليلة. وبينما ينتظرونها، يتسلّون بالحبّ والزواج وإنجاب الأطفال ودفن الموتى...

متى بدأ الانتظار؟ هم أنفسهم لا يعلمون.

يروي الشيوخ منهم أخبارَ ليالٍ سابقة شهدوها هم، أو شهدها جدودهم من قبلهم. ولكن ليس بينهم من يتذكر البدء... ويتّفق الجميع على أنّ تلك الليلة لا تبدّل تاريخها.

في المساء تغرب الشمس باكرًا. تسحب أنوارها الباهتة وتنطفئ خلف غيوم سود، وتحلّ الظلمة على الأرض، فيهرع الرجال إلى أحذيتهم الثقيلة، ينتعلونها، ويتدثّرون بقمصان الصوف وعباءات تقيهم هجمات الصقيع ونَفْحَ الرياح الشمالية، ثمّ يحملون ما أعدّتْ نساؤُهم من زاد، وَيرُدُّون القرب الفارغة فوق ظهورهم، ويقفون عند أعتاب منازلهم ينتظرون اللحظة الحاسمة، لحظة تُنكَّس الأشجار رؤوسها وتسجد. أجل، لا يُجادلونك في هذه القضية؛ أشجار قريتهم تسجد في تلك الليلة ومنذ مئات السنين، وذلك يعني تفجُّر الينبوع.

ويسير الرجال في موكب واحد، وتقف نساؤهم عند أبواب المنازل، يلوِّحن لهم بالمناديل البيض، ويتمتمن صلوات العودة... ثمّ ينصتن إلى آخر صدًى لخُطى الأبطال.

***

وهذه ليلة أخرى تعود على القرية. ليلة افتقدتها «مريم» منذ زمن...

منذ عشر سنين كانت تقف عند العتبة، تودِّعه بقلبها وعينيها، وتصغي إلى أنفاس طفلهما النائم في فراشه الدافئ. كان قلبها طافحًا بالأمل والترقّب والخوف. وكانت العاصفة عنيفة والسيل ينهمر بغزارة، يصل الأرض بالسماء.

تَمنَّتْ لو استطاعت أن تبقيه قربَها، فلا يرافق الرجال. كان شعور غريب يختلج في صدرها؛ شعور لم تَقْوَ على تحديده، ولكنّها فهمته فيما بعد، حين طلع عليها الفجر وهي واقفة بالباب منتظرة... وأقبل الرجال إلى دارها، ولم يكن هو معهم.

حملوا إليها القربة الفارغة والحكاية مختصرة: «لم يصل إلى الينبوع، زلّت به القدم وسقط في قعر الوادي...» ولم تطلب منهم زيادة إيضاح.

لملمت جراحَها وانطوت على نفسها تهدهد ظمأً يكاد يحرقها.

وها هي الآن واقفة في الباب، ترقب الجسم الفارع يتوارى عن بصرها ليلحق بالرجال. وقبل أن ترميه في أشداق الليل قبَّلته

فـي جبينه، وفوق خدّيه، ومسـحت عنقه بأصابعها الخشـنة، ثمّ راحت تتحسّس صدره وكتفيه.

أصبح ابنها رجلًا. وغصّت بدمعاتها فلم تقل له كلمة. لكنّها صلّت من أجله في سـرّها ورافقته بعينيهـا وبقلبها. كانت تعرف الطريق جيّدًا. لم تسـر عليها مرّة من قبل، ولكن أخبرها عنها قبل أن تزلّ به القدم. الطريق وعرة المسلك، تتلوّى بين الصخور الناتئة والمرتفعات الخطرة، وتخترق غابة كثيفة تؤوي الذئاب في الشتاء والأفاعي في الصيف.

فوق هذه الطريق، يسـير الرجال بصمت. يسـتأنس واحدُهُم بوقع خطى جاره، والعاصفة تقوى وتشتدّ وتحتال على الأشجار، والأشجار تحني رؤوسها حينًا، وتقاوم أحيانًا... وتتكاثف الظلمة ويهطل المطر كالشـلّال. والرجال يتابعون سيرهم وهم يحلمون بلحظة لقائهم مع الينبوع.

ولكنّه لم يصف لها الينبوع مرّة. سألته كثيرًا، حتّى يئست من الجواب، فراحت ترسم الصورة في خيالها.

رَأَتْهُ شـلّالًا من فضّة، يرقص تحت أشـعّة الشمس، وتلمع في أعماقه أحجار الزمرّد والياقوت، وتسـري مياهُه خيوطَ ذهب، خيوط حياة، تخترق الأرض، تتّصل بشـرايين الناس، فتوقظ فيهم الأمل والطمأنينة.

بَقِيَتِ الصورةُ في خيالها.

عيون الرجال لـــم تنعكس مرّة واحدة علـــى صفحة الينبوع، وحين يتفجّر، تكون الليلة ظلماء، ومياهه تنقطع مع طلوع الفجر. ولم يحاول الرجال أن يبحثوا عنه على ضوء النهار. كانوا يعلمون أنّ جهدهـــم عبث وقد يُحرمون من خيراته في الســـنوات التالية. وهكـــذا اكتفوا بليلة واحـــدة، ينتظرونها مرّة كلّ عـــام، ويغزلون حولهـــا الأحلام والأماني. وحتّى ذكريات ماضيهم تتّصل جميعها بليلة القدر تلك. وعندما يقتربون من الينبوع يتحسّســـون سبيلهم إليه بأيديهم، ويزحفون على بطونهم، ثمّ يغطّســـون قربهم الفارغة وينشلونها ملأى، وقبل أن يردّوها فوق ظهورهم، يغمسون أيديهم بالماء ويشـــربون، ويشـــربون حتّى يرتووا، ثمّ يغسلون وجوههم وعيونهـــم، ويتراجعون زحفًا على البطـــون. وفي تلك اللحظات تكون رؤوس الأشجار ما تزال منحنية، تكنس وجه الأرض.

ويعـــودُ الرجال إلى بيوتهـــم، صامتين. يصِلونهـــا قبل طلوع الفجر، فيوقظون أطفالهم ليشـــربوا من ميـــاه الينبوع، وتتخاطف النســـاء القرب من أيديهم ويســـكبن من مائها فوق الدقيق لعجن خميرة الفجر الجديد.

مياه الينبوع تحوي سرّ الخميرة الجديدة.

تذكّرت مريم أنّ حفنة الدقيق في معجنها باقية تنتظر منذ عشر سنين وما استطاع أحد أن يحمل إليها قربة ماء.

ظلّت تقف عند العتبة، كلَّ سنة، وظلّ الجفاف يلهب حلقها وعينيها.

وهذه ليلتها.

عادت الفرحة ترقص في قلبها، وذابت سنوات الصقيع في صدرها، وقويت عليها الدموع.

رَفَعت يدها لتمسح دمعاتٍ دافئة؛ فصدم أذنَها صدًى بعيد:

إنهم عائدون، وسيكون هو في المقدمة. لا تبصر وجهه بوضوح. تفصله عنها غمامة، وهذه الدموع. وجهه يقترب منها وتضحك لها عيناه. هكذا كان دائمًا، وخدّاه شعلة نور.

لم تَقْوَ على ردّ الدموع، تدفّقت كالينبوع، قويّة، دافئة، وراحت تغسل عينيها وخدّيها، وتجري أقنية تعانق الأرض وتمتزج بقطرات المطر.

فتحت ذراعيها، وظلّت جامدة عند العتبة. وأيقظتها من غيبوبتها كرَّاتُ ضحكته المرحة:

«إشربي يا أمّاه، اشربي. كنتُ لا أصدقُ أخبارَ الينبوع... أمّا اليلة فآمنت»...

1961

مكتبة
t.me/soramnqraa

وسَقط المَطر

«لا بُدَّ من أن يسقط المطر.

يجب أن يسقط المطر. لم أعد أستطيع».

قَرَّبَتْ «ريا» عينيها من زجاج النافذة. تَصَوَّرَتْ نفسها بحَّارًا يقف عند مقدّمة السفينة ويحاول التنبُّؤ بحالة الطقس. وفي السماء تبعثرت غيوم رمادية، غيوم بيضاء، توزَّعت بلا تنسيق مثل قطيع غنم شارد، وفكّرتْ: «إنّها غيوم لا تحمل الرحمة».

أدارت لسانها بين جدران حلقها: «حلقي مقطوع من حطب يابس. مثل سمائنا في هذه الأيام. ولكن ماذا لو لم يسقط المطر؟»

شَعَرَتْ بحاجة إلى البكاء وتذكّرَتْ أنّها لم تبصر دموعها منذ سنوات. الدموع الدافئة اللذيذة تنفر من العينين وتغسل القلب: «وهذه أضعتُها».

هجمتْ على النافذة، وفتحتْها على مصراعيها: «أبحثُ عن هواء نقيّ، ينفذ إلى مسام جسدي. هواه يجفّف رطوبة جلدي، ويغسل عفونة الأقبية من عيني».

فَشِـلتِ النافذة فـي التقاط نفس واحد مـن الخارج... تلك الأنفاس الذكيّة تعبق في أعالي التلال، في غابات الصنوبر: «وحتّى الصنوبر فقد أنفاسه العطرة».

وهي ما زالت في غلالة النوم. قميص من الشـفّاف الليلكي، قميص حلم: «أنفقتُ مالي كلّه على الثياب الجميلة فماذا جنيت؟».

من قبيل التشفّي وإحراق الوقت، راحت تتجوَّل في الأسواق تبتاع منها أجمـل الحلى والثياب والأحذية. لَفَّتْ جسـمها بكلّ مزخـرف، وظَلَّتْ عروق الجسـم جامدة وبشـرته على جفافها: «يجب أن يسقط المطر».

«إذا سـقط المطر اليوم، أرتدي معطـف الفرو وحذاء طويل العنق وأخرج إلى الشارع بمصابيح وشرائط ملوّنة. ملأت سراجي زيتًا وجلست طويلًا أنتظر قدوم العريس».

«وإذا سـقط المطر، أقف هناك، في عرض الشـارع. أقهقه، أفرش شـعري فوق كتفي، أذريـه للعاصفـة. وتتغلغل القطرات المنعشة في ثنايا الفرو، لتلاصق جلدي».

الغيوم في السـماء تتقلّب، تواصل زحفها، ويربدُ لون الأفق المعانق البحر: «كأنّ التهابًا عنيفًا ضرب بطن البحر فراح يتجشّـأ ويزفر... حتّى البحر بات يبصق الرماد... ماذا لو بقي البحر يبصق رمادًا ولم يسقط المطر؟».

رفعت «ريًا» يدين أصيبت عروقهما بالتشنُّج، وتحفَّزت أطراف أظفارها لاختراق جسم طريّ. تذكّرت أحواض الزهور فوق الشرفة. لن تستطيع أن تغرز فيها أناملها، تداعب التراب، وتدغدغ الجذور... وجه الحوض مثل جوانبه، فخّار صلد، والنبتات الصغيرة تميل إلى الصفرة، وتبحث عن دموع: «لم يعد باستطاعتي أن أسكب دموعي لأرويها».

وأقفلت النافذة ثمّ أسدلت الستار.

***

- ريًا. أين أنت؟

فارسها الجميل لا يزال في البيت. وصوته يهدر بين الجدران كالشلال: «صوتُكَ مثل سقسقة مياه جدول راكضٍ بين الكروم».

قفزت العبارة إلى ذهنها. تشبيه يخصّ الماضي... إنّه بعيد عنها الآن.

مياه الشلّال تقف هذا الصباح في عينيها عمودًا من نار.

جرجرَتْ قدميها إلى غرفة النوم.

كان يزرِّر قميصه أمام المرآة.

وقفتْ خلفه، حاولت أن تلتقط حواسها المبعثرة: «مشاعري هاربة أوراق خريف تركض في أودية مقفرة، أفاعٍ تتراقص تحت سوط الحرّ».

مَدَّتْ يديها وأراحتهما فوق كتفيه: «وكانت كتفاه مرفأ الأمن، وكان الحنـــان يقطر من أطراف أناملي، فيســـري إليه ونتلاقى في عناق شهيّ».

شدَّت يديها إلى صدرها وظلَّت عيناها سارحتين عبْر الزجاج.

– ماذا تفعلين اليوم، يا حبيبتي؟

وهذه الكلمة قطرة مطر هاربة، ليتها تستطيع التقاطها لترطِّب شفتيها:

«في وجهه بشـــر ومرح، وعيناه طيّبتـــان يرقص في أعماقهما النور. عيناه تســـتطيعان الآن أن تســـكبا الدموع. أقول له: أشتاق إلى دمعة يا... لا، لن أستطيع أن ألفظ الكلمة... أحتاج إلى دمعة يا... أنت أتقرضني دمعة لعيني أيها الغريب؟... وإذا قلت له ذلك فماذا يفعل؟ يثور ويجثم الهمّ في عينيه. وأنا، حين يسقط المطر، لا أعود غريبة وتظلّ آثار ثورته جرحًا مفتوحًا بيننا. نقطة ســـوداء، نقطة شكّ تقفز بين أعيننا. لن أقول شيئًا».

– اليوم؟ ســـأنزل إلى الســـوق وأبتاع أشـــياء جميلة. أجمل الثياب، وحذاء من قصب. بعد غد عيد ميلادي. أتذكر؟ ســـنقيم الحفلة الســـنوية... العشـــاء الفاخر على ضوء الشـــموع، ونطعم المدعويـــن في قصاع من فضّة ونســـقيهم خمرًا معتّقة في كؤوس «الكريستال»، وسأشتري شريطًا ملوّنًا ألفّه حول الموائد، وزجاجة عطر، أفخر عطر في أسواق بيروت.

«وأنا اليوم أحتاج إلى العطر لأغسل شعري».

– إذًا أنت بحاجة إلى المال... إلى الكثير من المال.

«ليت مالك يا غريب يبتاع لي دمعة، قطرة مطر لهذه السماء العطشى».

– أجل أحتاج إلى ألف ليرة، تقريبًا.

«يهبني ماله بسخاء... كان سعيدًا ليلة أمس وأعماله فوق الريح».

– عودي إلى الفراش، يا حبيبتي، لا يزال الوقت باكرًا، ولم تفتح المخازن بعد.

«ليتهم كانوا يبيعون المطر في تلك المخازن الجامدة! يفتحون أبوابهم وتتدفّق المياه من الأبواب، من النوافذ، من عيونهم وقلوبهم وأيديهم... ويقف الزبائن في الخارج، فيغمسون أيديهم بالدفق الفضّي ويغسلون عمش عيونهم، ثمّ ينحنون فوق المياه الفضّية، ويغبُّون منها إلى حدّ الارتواء».

***

كانت الغيوم تتسابق في الفضاء، ومثلها العربات في شرايين المدينة، وقلب المدينة يُمْعِن في ضخّ السائل اللزج. قلب من فولاذ. وكانت «ريًا» تسمع دقّاته تتناغم مع وقع حذائها على بلاط الرصيف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ليتنـــي لم أنتعـــل حذاء عالـــي الكعب! سأمشـــي كثيرًا هذا النهار... سأبعثر وجودي بين المنعطفات والشوارع... وأغرس في كلّ زاوية قطعة منّي، حتّى إذا ســـقط المطر، في أيّ شارع، أكون حاضرة لاستقباله».

«كيف يســـتطيع هؤلاء التجّار أن يعيشـــوا في أجواف مظلمة أكثر من ثلاثـــة أيّام؟ لو يُخرجون بضاعتهم هكـــذا، يمدّونها في عرض الشـــارع وتنقلب المدينة إلى سوق قرويّة تُنشر فيها السلع بلا تنسيق».

«ولكنّهم، لو فعلوا ذلك لأكل كبيرهُم الصغير... لذا يُفضّلون البقـــاء في البطـــون المظلمة، يعيشـــون مع أســـرارهم الصغيرة، ويحصـــون أرباحهم على ضـــوء مصباح خافـــت – عند انتصاف الليل – واجهاتُهم وحدها تقابل الشمس وتلوّح للمطر من بعيد».

وقفـــتْ «ريَّا» طويلًا أمام واجهة للملابس الجاهزة، واختارت منهـــا الأجمل، ثوبًا من الدانيلا الســـوداء: «ســـأبدو فيه أميرة من أميـــرات القرون الغابـــرة، وأبقى بحاجة إلى عربـــة مُذَهَّبة تجرّها أفراس بيض».

وجدتْ بعد ســـاعات الحـــذاء المقصّب. وكانـــت قد تعبت من المســـير، فدخلت المقهى لترتاح وتنفض الغبار العالق بيديها ورموش عينيها، وترطّب جفاف حلقها.

– فنجان قهوة من فضلك.

ينحني لها النادل بأدبٍ «قرأ اسم المخزن الكبير على ذيل الرزمة». لاح طرف ابتسامة فوق شفتيها:

«أنا هنا، حذاء وثوب، وفي الشارع سيّارة. ولكن حين يسقط المطر، لا يبقى هناك وقت للوقوف وقراءة الأسماء فوق الرزم... عندها تمتلئ المقاعد، ويتكدّس الناس حول الطاولات وترتفع وَلْوَلَة العاصفة أمام الواجهة».

ازداد تجهُّم الجَوِّ في الخارج، وانحنتْ «ريًا» فوق فنجان القهوة تغلّ أنفها في سحابة البخار: «فقدتُ حاسّة الشم»... تحوّلت نكهة البنّ في حواسّها: «أَشمُّ فحمًا يحترق».

جَرَعت الفنجان دفعة واحدة، وظلَّ الجفاف في حلقها وفوق شفتيها، وظلَّ لسانها خشبة يابسة:

«بقي عليّ شراء الشريط المُلَوَّن والشموع الحمر».

وقفتْ في الباب تتأمّل حاجب السماء من خلف البناء المقابل: «ليتني ارتديتُ معطف الفرو والحذاء الطويل العنق».

صدمها ضجيج الشارع ولغط المارّة، ولكن من بعيد.

كانت محصَّنةً خلف جدارها، ترقب الناس من وراء الزجاج.

سَبَتْ بَصَرَها الواجِهَةُ المزخرفة في مخزن الشموع. شموع حمراء، صفراء، ترقص فوق رؤوسها تيجان كهرباء:

– أعطني عشر شموع وشريطًا ملوّنًا.

دفعت للتاجر آخر فلس ثمّ خرجت، يدها تقبض على المشتريات الثمينة: «أحسّها حجارة منحوتة، حجارة رخام بارد ترتفع في صدري، أبنيها وأهدمها في لحظات، وأتمنّى لو أبني منها درجًا، مُرتقى إلى هيكل، إلى غمامة تهلّ بالمطر»...

اعترض سبيلها سلّم راحت ترتقي درجه، فوجدت نفسها أمام بوّابة قديمة حائلة الألوان. كانت تلك البوّابة الوحيدة المشرّعة في المدينة، وكان خيط سحريّ يشدّها من عينيها إلى الأنوار الخافتة في الداخل، أنوار الشموع الموزّعة في زوايا القاعة وأمام المذبح.

عالَم رائع، ومقاعد فارغة يحتلّها السكون، وشموع صغيرة، كالعرائس البيض تتراقص فوقها حرائق حقيقية.

وعبق في أنفها شذى البخور.

نسيتْ أنّ يديها مملوءتان بالرزم. رفعتْهُما إلى وجهها تغسله بالشذى والنور... وتراكمت الرزم الأنيقة عند قدميها... بحثت عن كلمات صلاة تتلوها أمام المذبح، فخانتها الذاكرة... ولكن شيئًا جديدًا وُلِد في صدرها في تلك اللحظة. وإذا بالكلام ينهمر كالسيل، فوق شفتيها... كلام صلاة بكر.

بدأت حجارة الرخام تذوب في صدرها، ويتصاعد بخارها حرائق تشتعل في عينيها، فتبصران الشموع الحمر مبعثرة على الأرض:

«إذا أحرقت شموعي ربّما تنهمر الدموع».

بدأت تشعل الشـــموع الثمينة وتغرزها في الرمل، واحدة تلو الأخرى، فتلتهب رؤوســـها بمســـرّة وينعكس نورهـــا على تمثال السيّدة وطفلها... ويسحُّ ما تبقّى منها قطرات دافئة تتّصل بأطراف أناملها، وتعبر من خلالها إلى دمها فتتسارع خفقات قلبها وتصدح موسيقى سماوية في أذنيها.

قصـــفَ الرعـــد، واخترقت العاصفـــة البوّابة الكبيـــرة. هَبَّتْ على لهب الشموع وهزَّت ســـتائر الهيكل. وظلَّت الألسن النارية تتراقص، تحوِّل المعبد إلى عُلّيْقة مشتعلة.

وَقَفَتْ «ريَّا» لحظة على عتبة البوّابة الكبيرة، تلتقط دموعها قبل أن تستسلم للعاصفة. وكانت تتمنّى، وهي تركض تحت السيل. لو ارتدت معطف الفرو وانتعلت الحذاء الطويل العنق.

1963

اللغْنة

إسمي؟

تَسْألُ عن اسمي؟

«رجاء».

نعم اسم بسيط ذو مغزى مُستحبّ.

تحبّ أن تعرف شيئًا عن حياتي، عن طفولتي، ونشأتي وبيئتي؟

أَعْفِني يا دكتور. ليس الآن.

ما جئتُ إليك إلّا لتساعدني في هذه القضيّة الخاصّة، المحدَّدة. أجل مشكلتي بسيطة جدًّا. وكان عليّ أن أعترف لإنسان يساعدني في حلّها، وفي فهم ذاتي، قبل أن أُضيع البقيّة الباقية من قواي العقلّية.

نعم، في الآونة الأخيرة بِتُّ أخشى الجنون. والأسباب؟ ما زلتَ تُصرُّ على اكتشاف مراحل نشأتي؟ وهل أنا قارة آسيا؟ أم أفريقيا؟ هل أنا مهمَّة إلى هذا الحدّ؟ المسألة لا تستأهل ذلك كلّه

يا دكتــور!.. طيِّب إذا كنت مصرًّا على هــذه النقطة بالذات، فأنا أصرُّ بدوري على تقديم الموضوع الأهمّ.

أجل الأهمّ بالنسبة إليّ.

أنت تعرف مصلحتي أكثر منّي؟ صحيح، ربّما. من أجل هذا لجأت إليك أَستشيرك، وأطلب عونك.

يَكْفيكَ تعذيبي يا دكتور. ألا تريد أن تسمع؟

ماذا؟

عليك أن تُدَوِّن شيئًا في سجلّك؟ أجِّلها.

ماذا أحــسّ؟ اوه! إنّي امرأة طبيعيّــة. طبيعيّة جدًّا، أحسّ بما يحسّ به الناس في حالاتهم الطبيعية. دورتي الدموية تسير بانتظام. قلبي صحيح، وبقيّة أعضاء جسمي سليمة والحمد لله. لا. لا تسلْ عن الجســم. جئت إليك من أجل قضيّة تشــغل الطابق الأعلى، رأسي... هنا المشكلة يا دكتور!

ماذا؟

انقضى نصف ساعة؟

طَيِّب دعني أباشر الحكاية:

في الحقيقة لا أعلم كيف أبدأ. هذا السر ما أفشتيه لأحد. ولا تَعَوَّدْت أن أُزعج الآخريــن بخصوصياتي، ولكن أنتَ تختلف... نصحوني باللجوء إليك. أنت كرسي اعتراف، وطبيب في الوقت نفســه. عظيم اختراع «السيكولوجيا» في هذا العصر، ألا توافقني؟

كان آباؤنا وأجدادنا يولدون ويحيون ثمّ يموتون من دون أن يتعرّفوا إلى العُقَد التي تُلَفْلِف حياتهم. أمّا نحن، فحظّنا كبير. نشـــكر الله على أنّنا نعيش في عصر العُقد، وأنّه خلق أشخاصًا يساعدون في حلّها... مثلك يا دكتور.

ربطـــة عنقك أنيقة. أنيقة جدًّا... من باريس؟ طبعًا من باريس كم تمنّيت أن أسافر إلى باريس. تلك المدينة!

أعود إلى موضوعي؟

لا أحبّ أن أضيّع وقتك بسخافاتي.

معك حقّ يا دكتور، إلى أين وصلت؟

آ! خصوصيّاتـــي. أجل هذا الموضوع أعتبره خاصًا جدًا، لعلّ هذا ما يزيد قلقي.

تَرى، الاعترافُ يريح الإنسان.

حين يعترف المرء، يدفن همومه، يطرحها في البحر، يزيحها عن كتفيه. أمّا التعلّق بالسرّ، الاحتفاظ بالمشكلة، فيسبّب التسوّس والاهتراء... إنّه المطرقة التي لا تتوقّف عن خبط جدران الصدر.

لا. أسلوبي ليس كما تعتقد.

بضع عبارات حفظتها من أيّام المدرسة. أستاذ الأدب العربي كان يعشـــق موضوعه ويدفعنا إلى الاقتـــداء به. لا. لم أكن مبرزة في هذا المضمار ولا في سواه. كنت أنام أو أسهو نصف الوقت. أجل أسهو. هل عندك علاج للسهو يا دكتور؟

أحسُّ أنّي أبدًا على مفترق طرق، وسط شبكة، وعليّ أن أختار طريقًا واحدة، ولكنّي أعجز عن ذلك، فأركض في كلّ صوب، ثمّ أعود إلى نقطة انطلاقي، وأغفو.

النوم لذيذ يا دكتور. أحيانًا أتمنّى لو أنام عمري كلّه.

ما الذي يُغري في هذا الوجود؟ هذه الدنيا زائلة، ونحن نعرف ما ينتظرنا، ولا نعلم كيف ومتى؟

هــل فكّرت في ذلك مرّة يا دكتور؟ الموت؟ أجل، إنّه قاسٍ. أتمنّى لو أبقــى نائمة حتّى إذا قرّر أن يداهمنــي، لا أحسّ بألم. لماذا يموت الإنسان؟ هل عندك جواب يا دكتور؟

آ... أعوُد إلى موضوعــي؟ ولكنّي في صلب الموضوع. من أجل هذا لجأت إليك. الموت. القتل. أنا قاتلة.

لا، لا أحبُّ الكلمة. أُفضّل عليها عبارة أخرى.

أنا أملكُ طاقة فتّاكة... طاقة اغتيال وقتل.

لا يبدو ذلك عليَّ؟

سأحاول أن أقنعك في ما سأرويه لك...

وإذا كانت تهمُّك التفاصيل فلا مانع من استعراضها بجرأة... «أنتِ قاتلة».

هذه العبارة تلاحقني في النهار وفي الليل.

لا، لا أحمــلُ ســلاحًا، ولا أُرابطُ عنــد المنعطفات لأفتك بالناس. والذين أصابتهم طاقتي القاتلة، لعنتي، كانوا أقرب الناس إليَّ، أصدقائي، أحبّائي.

نعم... قتلتُ أقرب شــخص إليَّ. ولم أعرف ذلك، إلّا بعدما وارَوْه الثرى.

اعذرني لاستخدام هذه المفردات البشعة: الموت، الثرى...

أرَأيْت... لا أحتمل كلّ ما يتعلّق بالموت...

في كتب الإرشاد النفسيّ، يُكْثِرون المواعظ:

«يجب أن تعتاد الموت. إنّه أمر طبيعي مُتَمِّم للحياة».

والأديان والفلسفات كلّها تحاول أن تخفّف من ثقل الكلمة. ولكنّها فشلت... معي أنا، على الأقلّ.

كان زوجي الضحيّة الأولى.

نعم. عشــنا معًا سنتين، اكتشفتُ خلالهما أنّ الحبّ ليس كل شــيء. بات حبّه يضايقني. أصبحتْ حياتي معه جحيمًا لا يُطاق. خنقني بحبّه.

لا، لــم أتَمَنَّ له المــوت، ولا ضايقتُه مــرّة. ولكن هو، راحَ يزعجني. لم يتعرَّض إلى إهانتي جسديًّا. لا.

وظللتُ أحبّه. بل كان حبّي الوحيد، ولكنّه حبّ بدأ يعيش في ظلّ الخوف، وكنت أفكّر في الخلاص، فلا أجد فســحة أمل. لا يمكن أن أنفصل عنه؛ كيف أبرّر انفصالي عن رجل أحبّه ويعبدني؟

لا، لم نُرزق أطفالًا. كان يكره زعيقهم، ويخشى أن يشغلوني عنه.

أجل، كان يغار حتّى من وجود طفل في البيت. الغيرة مرضٌ، يا دكتور، أليس كذلك؟

وحين توفّي في حادث سيارة، حزنتُ كثيرًا، وبَكَيْتُ دمًا.

ومع ذلك فرحتُ بالحرّية التي عادت إليَّ... هذا الشعور هو ما يقلقني يا دكتور.

«أنتِ قاتلة».

كنت أستيقظ من الكابوس، لأصرخ في وجه العبارة:

«لا. لم أقتله. لا».

لم أحدِّث سواك بذلك. وعاش السرّ في صدري سنين وتجَاهَلْتُه دائمًا. لم أشأ أن أصدّق. وظلّت إصبع الاتِّهام تَزْحَف إليَّ في الليالي الموحشة... أفواهُه الغيلان السود تنفث سمّها: «أنتِ قاتلة».

وهربتُ، سافرتُ. الحزن نهكني. نصحني طبيبي بالسفر إلى الخارج، ووافَقَتْه صديقتي رُلى.

كانت أغلى صديقة. تُضَحِّي من أجلي وتتفانى في التضحية. ومع الأيّام، باتتْ صحبتها تضايقني. هكذا، ومن دون أسباب: كانت طَيِّبَة. وأنا تغيَّرت...

الأيّام ترصفُ طبقاتها فوق وجودنا وتقشـــر جلودنا. كلّ يوم يزيد البناء مدماكًا. ويحدثُ التحوّل.

لا شيء يدوم.

أتوافقني يا دكتور؟

ومع الأيّام، باتت رُلـــى، أعزُّ الصديقات، تزعجني، ولم يكن لي عذر للابتعاد عنها أو استبعادها، حتّى كان العام الماضي. قرّر زوجها أن يســـافر إلى بلدٍ بعيدٍ، من أجـــل أعماله. لم أفرح ولم أحزن. كانت فكرة الخلاص تســـيطر على العلاقة الواهية. راحت ذكرياتي تتراكم، وتزيد حزني. أيّام صداقتنا، لا يمكن أن أسلخها من وجودي، أصفى صداقة، ورُلى مثال التضحية، ســـوف تبتعد، ولا أعود أُبصرها ولا تطرق بابي في الصباح، لنشرب القهوة معًا. ولن تهرع إليَّ في ســـاعات مرضي وألمي، لتلازم فراشي. كانت تترك زوجها وأطفالَها من أجلي.

وقبل ســـفرها، أُصيبت بـــداءٍ مفاجئٍ، نقلوهـــا على أثره إلى المستشفى. وكُنْتُ أنوي أن أعودها في اليوم التالي. أجل، أحمل إليها باقة أزهار أو علبة حلوى. وفي الصباح الباكر استيقَظْتُ على طَرْق الباب. كان زوجها واقفًا في العتبة، ينظر إليَّ ويحبس دمعاته في عينين حمراوين: «العوض بسلامتك».

وصلت كلماته إليَّ أصابع اتّهام: «هل سُرِرْتِ؟ هل ارْتَحتِ؟ ماتَتْ! ماتت. لن تُسافرَ فحسب، ماتت».

تَراجَعْتُ خائفة، وأَسْنَدْتُ ظهري إلى الجدار، وقد امتدَّتِ الرعدَة إلى أطراف أصابعي: «لا أُصدّق».

وحَسبَ المسكين أنّ ما أصابني كان حزنًا من أثر الصدمة. ولم يخطر له أني كنت أعاني آلام مجرم أمام قوس المحكمة.

منذ سنتين لم أسأل عن رُلى.

كيف أواجه أطفالَها؟ أأقول لهم: «أنا قتلتُ والدتَكم»؟..

خيال؟ هراء؟

تهزُّ رأسك يا دكتور. ربما مرّت حالات كهذه أمامك. أنتَ تبصرها من الخارج، أمّا أنا فأعيشها، وأعيش الليالي السود الفارغة. لحظاتُ الألم والدموع، لي وحدي. بتُّ أخشى أنْ أقتربَ من إنسان، كيلا أسبّب له الأذى أو الموت.

أشخاصٌ آخرون ذهبوا ضحيّة لعنتي.

آخرون نعم.

قبل أيّام، تُوفي شاب قريبي – أحد ضحايا الطاقة الخفيّة – لا تُقاطعني. دَعْني أُكمل الرواية. لم تَكُنْ هناك علاقة تربطني به. لم يكن يُضايقني مطلقًا. ولكني شعرتْ، قبل موته، بأنه سينضم إلى قائمة الضحايا، لن يعيشَ طويلًا.

هكذا وبلا سبب.

وحيــن جاءني نعيه لم أُصعَقْ، ولم أُفاجأ. وكأنّما كنت أتوقّع ذلك فــي اللاوعي. تَمَنَّيْت لو أمدّ أظفاري إلى غشــاوة اللاوعي تلك فأمزّقها وأُفلِت الطاقة الخفيّة، المجرمة.

سبب الوفاة!

نوبة قلب.

شابّ، مثل الحصان، قلبه فولاذ. ويموت بنوبة قلب؟

تَصَوَّرْ!

وبينما كان الناس يبكونه حزنًا، كنتُ أَبكي من وخز الضمير... وكانت تدفعني رغبــة عنيفة لأقف في المُشَــيِّعين، وأصرخ: «أنا القاتلة... لا تُصَدِّقوا القلب».

وجَبُنْــتُ. لم أعتــرفْ لوالدته حين استســلَمَتْ بانهيار لقبلة مؤاساتي.

ولم أقُل لأبيه، ولكن عينيه، ذلك العجوز، تلاحقانني. تَقُضَّان عليَّ مضجعي، تنغّصان عيشــي: «قاتلة، مجرمة، اطرحوها خارج العتبة».

ويُدوّي صدى كلماته في آذان الجمهور... فيردّد كالجوقة: «قاتلة. مجرمة. اطرحوها خارجًا... ادفُنوها تحت الثرى».

وأهرب منهم، ويمضون في مطاردتي.

رجــال أقوياء يرتــدون الثياب الســود وقد أطلقــوا لِحاهم وشواربهم يطاردونني وفي أيديهم حراب وسيوف وعصي.

وأركض في وادٍ سحيقٍ فأتعثّر بحجر، ثمّ أُلَمْلِم نفسي، وأتابع الركض. ويمضون هم في زحفهم كأسراب الجراد.

الكابوس يعود إليَّ كلّ ليلة.

وأستيقظ سابحة في العرق البارد، وأتمنّى لو أنام، لو أبقى نائمة حتّى إذا قرّر الموت أن يداهمني لا أحسُّ بألم.

1964

بقيَت الذكرى

لحظة واحدة، وتنفجر الذكريات. تنهار عليك جبلًا ثقيلًا، وتهرب. تبحث لنفسك عن ملجأ أمين يقيها الثقل، يحميها من نور الشمس ولفح الريح، يصدُّ عنها العالم الخارجي.

ترفض الذكرى. تحـــاول خلعها من وجـــودك. تطرحها ثوبًا مُهَلْهلًا في زاوية منسيّة وتجهل أنّها في صميمك، أنها أنت.

ومن الذكريات ما يفرح، يعيد بناء عالم الدفء والأمن، ويعيد تقليب صفحات أليفة من كتاب حبيب... ماضيك.

وبعضها يهزُّ كيانك ويوقظ الوحوش النائمة في قرارة النفس.

واللحظـــة هبطت عليَّ حين لم أكن أتوقّعها، انهمرت ســـيلًا جارفًا في رحلة على أبواب الخريف.

وكنت قد قرّرت الهرب مـــن العالم، ولفلفت خيبتي لأعتزلَ معهـــا في دارنا الريفية، في قرية نائيـــة لا تصل إليها العربات ولا أخبار العالم الخارجي.

لبعض الناس من الجــرأة ما يدفع إلى القيام بمغامرة في كلّ لحظــة من الحظات العمر. وأنا كنتُ أجْبــنَ من أن أجتاز حدود نفسي.

لماذا؟

هذا ليس المجال للتحليل النفســي، ولا يتّسع لسرد تفاصيل حياتي. وليس فيها ما يثير الاهتمام. كلّ شيء يحدث في الداخل وهناك ينتهي.

وكنت أعتقد أنّ هذه الحكاية انتهت منذ ســنين بعيدة، طواها النســيان... وإذا بي أكتشف فجأة أنّها كانت هناك، طوال الوقت، جمرة مغمــورة بحفنة رماد. وجاءتْ أصابــعُ طفل صغير تنكتُ النار، وتزيح الرماد ثمّ تطرح الجمرة في طيِّ الضلوع.

***

كنت أقوم بزيارة أسرة صديقة حين فُتِحَ الباب، وأطلّ رأسُ طفل يتقدّم أمّه... صبيّة غريبة عن القرية، وبعمر براعم اللوز.

انتابتني رعشــة عنيفة وتســارعت خفقات قلبي، وسرى في مفاصلي شعور كان قد فارقني منذ سني المراهقة.

هبّت المضيفة ترحّب بالقادمَيْن وتُعرِّفني بهما: «لينا، بنت نورا مخول. وصلتْ مبارح من أميركا».

وامتلأت اللحظات التالية بالثرثرة بين السلام والسؤال عن الصحّة وما يرافق ذلك من مجاملات مألوفة ختمتها المضيفة بقولها: «يا لطيف شو بتشبهي أمّك - نورا - كيف الدهر عليها».

- بألف خير، الحمد لله.

«بنت نورا. يا لكَ من غبي! أوَلم تعرفْها من الوهلة الأولى؟ أو نسيتَ هاتين العينين؟»

وظلّ زمام الحديث بين يديّ المضيفة:

- وأمّك مش ناويه تزور البلاد؟...

- أشغالها ما بتسمح. جئتُ أزور التاتا وجدو.

وعادت الحلقة تلتهم لينا، وعينيها، ووجهها الصبوح؛ واختلطتِ الأحاديث بالذكريات وظلّتْ شفتاي مكبّلتين بصمت رهيب.

تَمنَّيتُ لو أهرب وأتجنّب اللحظات التالية، وكانت قوّة مغناطيسية تشدّني إلى المكان، فيسرح نظري رغمًا عنّي فوق الوجه الفتيّ، والقوام الفارع والشعر الحالك السواد.

ابنة نورا. وكيف حال نورا؟ وهل تذكر؟ ولماذا لم ترجع نورا بعد تلك الرحلة الطويلة؟ وهل هي هاربة مثلي؟ لا، هي أجرأ منّي استطاعت أن تُكيِّف نفسها، وتبني لها حياة سعيدة؟

هل استطاعت حقًّا؟

«أخبريني يا ابنة نورا، هل تتحدّث معك الوالدة في شؤون القلب/ هل تعليمن من أكون؟ هل سمعتِ اسم رضوان مرّة؟»

– والصغير، ما اسمه يا لينا؟

قذفتِ المضيفة سؤالها وهي تقدّم للطفل بعض الحلوى.

– رودي. اسمه رضوان، ولكن الجميع ينادونه رودي. الماما اختارت له الاسم.

الاسم؟ ماءٌ ساخن يسلق جلدي.

ومن دون أن أعي كنت في الباب، أعتذر بكلمات مبهمة وأتعلّل بموعد مَنْسي. رحت أبحث عن وسيلة أعيد بواسطتها الهدوء إلى بحيرة النفس. كانت الهزّة عنيفة خَضّت كياني وأثارت أمواجًا عتيّة راحت تتلاطم طيّ الصدر حتّى كادت تحطّمه.

لينا كان يمكن أن تكون ابنتي، وطفلها رضوان، حفيدي... «الجميع ينادونه رودي»... «اختارت الجدّة اسمه»... يا نورا!..

اغفري لي يا نورا، هل تسمعين؟ هل أَعْدَدْتِ بنفسك هذه المسرحية... المهزلة؟ هل وضعتِ الخطة للوصول إليَّ، لتوجّهي إليَّ الضربة القاضية وفي هذه المرحلة الحاسمة من العمر؟ أو لم تنسي، وبعد مرور ثلاثين سنة؟؟.

كنّا في مطلع الشباب... وكنتِ تفّاحة القرية، وأنا الفتى المدلَّل لأسرة مرموقة... وكانت سنوات الدراسة قد أبعدتني عن قريتي وسكّانها. وحين عدتُ ذات صيف فوجئْتُ بك، وردة نديّة

تتحدّى الربيع والنور. سألتُ أمّي عنك، وأجابت باقتضاب. ثمّ تلت جوابها بموعظة عن مستقبلي وتخصّصي والآمال المعقودة على نجاحي. كانت تريدني أن أصبح محاميًا شهيرًا، واستمرّت في إرشادها وأنا أُلاحظ طيفَك يجتاز الزقاق. وصِرْتُ من بعد أنتظرُ مرورَك عند كلّ منعطف ولم أجرؤ على البوح بما أحسُّ، حتّى جمعتنا تلك السهرة بين الكروم وعرفتُ أنّ بك ما بي، وتواعد قلبانا على الحبّ مدى الحياة.

يا لسذاجة المراهقين! يحاولون جمع الحياة وضمانها بكلمة سخيفة، فارغة، تُقال في ليلة قمراء... وماذا كنّا نعلم عن الحياة؟؟ وهل كنّا نصدّق أن تصبح هذه خاتمة الوعد؟

كانت سنوات الدراسة طويلة، وأنت قلت: «أنتَظرُ... بشرط».

أجل، كان لا بدّ من الشرط لتَبقي محترمة في أعين الناس. والشرط أن أتقدّم وأخطبك من والدَيك. ولم يكن هذا منتهى طموح أمّي: «أَنتَ حديث السنّ. والذي تحبّه اليوم قد تملُّه غدًا. يا ابني، فَكِّر بعقلك لا بقلبك».

– أحبّها يا أمّي.

– ومستقبلك يا حبيبي؟ ومستقبلها هي؟ الدنيا أمامك. العالم يشرّع لك أبوابه، والمرأة ليست سوى جزء محدود من حياة الرجل، أمّا العمل، فهو حياته كلّها.

وسألتني ذات مساء:

– ماذا قرّرت؟

وكانت الحكاية التقليدية تملأ داركم. الخاطبون من كلّ صوب، وأنتِ ترفضين، لماذا؟ ولكلّ وردة موسم، حسب مفهوم القرية... وأيّ مستقبل ينتظر فتاة ساذجة بعيدًا عن الزواج؟ وكُنْتُ ريشة تتلاعب بها الرياح الهائجة، ولا تستطيع أن تستقرّ في مكان... أرْفضُ حُبَّكِ، وماذا يبقى من الحياة؟ نتزوّج؟ وأدفنُ الأحلامَ والطموح في مسكن وضيع في القرية؟

وراح الزمن يضغط علينا، والحيرة تنهش صدري، والجبن يدفعني إلى الهرب من أقرب الأبواب. ولم تكن شجاعتي ما دفعني إلى الانفجار في وجهك تلك العشية أصارحك بأنّي لن أتزوج قبل أن أُنهي دراستي... ومن الأفضل ألّا تنتظري.

لم أعْطكِ الفرصة لتقولي رأيك. قطعتُ عليك الطريق، وبيدي نثرتُ أحلامك وآمالك ثمّ هربت.

تألّمتُ. أجل. كم يبدو ذلك سخيفًا، نظريًّا وبلا طعم!..

وأنتِ؟ أعرفك، الكرامة عندك قبل الحبّ، والإباء فوق الجميع. وحين طلب يَدَكِ مغترب ثريّ قبلتِ دون تردّد، وهجرتِ دنياكِ، دنيانا. وأنا، غرقت في أعمالي، في بناء المجد والطموح. وكان الغرق يصل إلى حدود القلب ويتوقّف هناك لينفرج عن فراغ كبير لم تستطع أن تملأُه امرأة أخرى.

لا. لم أعشْ حياة ناســك في صومعة... بل جَذّفْتُ في بحر الوجود. وغرفتُ منه حصّتي، وجمعتُ كنوزي. وظلّتْ في أساس كلّ ما بنيتُ طبقة فارغة، يطنُّ في أرجائها صدى اسمك...

نورا... نورا! ليتك أمامي لتســمعي اعترافي وتُعَلِّقي بقولك: «جبــان تافه». وربّما قلتها من قبل وخرجتِ عن حدود القول إلى الفعل فوضعتِ هذه الخطّة لتخلعي شــرايين قلبي. شَــهرت في وجهي أقسى سلاح يمكن أن يهبط على إنسان في خريف العمر. بَعثتِ إلى دربي صورتكِ المتجدّدة، وسهمًا حادًّا اسمه: رضوان.

1964

اللؤلُؤة

– مَنْ أكُون؟

سـألت الجميلة نفسها، وهي تُواجه المرآة في صبيحة مشرقة من صبيحات نَوَّار.

ثم قَرَّبت وجهها من صفحة المرآة وهتفتْ، كما هتفت قبلها ملكة إحدى الأساطير:

– أخبريني أيّتها المرآة، هل أنا جميلة؟ ما هو مستقبلي؟ وهل في الكون فتاة تفوقني حسنًا؟

وظَلَّتِ المرآة على برودتهـا وجمودها، وظلَّ الوجه مطبوعًا فوق الصفحة الصقيلة، بكلّ تقاطيعه الرائعة، العميقة الجاذب.

وخُيِّل إلى الفتاة أنّ المرآة تهمس في أذنها:

«أنتِ أجمل نساء المدينة... هل يُرضيك هذا؟»

فتمتمتْ:

– لا أدري. يقولون إنّـي جميلة. في كلّ يوم تقع العبارة في أذني مئات المرّات. يهمسـونها بإعجاب وحرارة. ظلّوا يردّدونها حتّى اهترأت الكلمات، وفرغت من المفاجأة والعفوية.

أذنـي تعوَّدت أقوالهـم، فلم يعد القلب يرتعـش، ولا ترفُّ الأهـداب أو ترقص الأضواء في العينين. وهـا أنّي أهرب إليك من صخب الحفلات، لأشـكوَ همّي. وإذا كنتُ أجملهنّ، حسب زعمـك، فَلِمَ يَذوي الشـباب فوق راحتيَّ وأنـا أُطلّ على عامي العشـرين؟ لماذا فَقَدتِ الأشـياءُ طعمَهَا؟ لماذا أختنق في جوف الملل والفراغ؟

إنّي تعيسة وجمالي لا يسعدني. ولا تستطيع الجواهر والثياب المزخرفة أن تنتشلني من هاوية السقوط هذه.

ومن قبل كانت الأشياء الصغيرة تَكْبَرُ في هنائي، وتكسب من فرحي غاية لها ومكانة.

بتُّ الآن أربط الليل بالنهار. الوجود يبهت في ناظري، وخطاي تقودنـي إلى عالم رهيـب، تترجَّع فيه أصـداء الصمت والفراغ، وتغلِّفه سكينة الموت.

أجابت المرآة مؤاسية:

– وهذا التشـاؤم، يـا صغيرتي الطيّبة، يمكن تفسـيره بعبارة واحدة: لقد فشـلتِ في تجربة حبّ، فأظلمـتِ الدنيا في عينيك،

وطوّقتْ وجودك غشاوةُ تشاؤم، فذاب الإشراق، وانطفأتِ الأنوار، وخرست الموسيقى.

ردَّت الفتاة بهدوءٍ:

– كلام لا يخلو من الصدق. ولكن قولي: ما هو سبب فشلي؟

أطرقتِ المرآة وكأنّهـا غارقة في التفكير العميق، ثمّ واجهت الفتاة:

– الإنسـان حكيم نفسـه. وحدك تعلمين سـبب الفشل، لا في حبّ رجل، بل في العيش السـعيد. تأمّلي عينيك مليًا، فماذا تبصرين؟

– أبْصِرُ... عينين سوداوين واسعتين يصحّ فيهما قول الشاعر: عيون المها...

قاطعتها المرآة:

– لا يشغل بالك سـوى الصفحة الخارجية. أنا لا أتكلّم عن الإطار الخارجيّ لعينيك، بـل عمّا تحتويان. تأمّلي، ماذا تبصرين في هاتين العينين؟

– أُبْصِرُ نفسي.

– وماذا أيضًا؟

– لا شيء.

فقهقهت المرآة:

– نفسك واللاشـــيء. وإذا تعمّقتِ أكثر يتحوّل هذا اللاشيء إلى شـــيطان يحمل سوطًا مسمومًا، يضرب به كلّ علاقة تحاولين بناءها في عالمك. أنت لا تبصرين في عينيك ســـوى نفسك وهذا صحيح، فأنت ممتلئة بنفسك إلى حدّ لا يسمح لأحد من الخارج بالدخـــول والوقوف إلـــى جانبك في محـــراب المحبّة. إنّك مثل صدفة اللؤلـــؤ، ما أن تحسّ أنّها تحوي كنـــزًا حتّى تنطوي عليه، وتحضنه، ثمّ تغلق كلّ منافذ النور والهواء من حوله. ولكن شوق اللؤلؤ إلى الظهور، وطموح الباحثين عـــن الكنوز الدفينة يلتقيان ويتعاونان على تحطيم الأنانية الصلبة.

نفسُكِ لؤلؤة وجودك. كَفَاكِ حبسَها والتضييق عليها، وفَرْشها في كلّ زوايا كيانك، حتى أنّك لم تتركي مكانًا لأحد.

اللاشـــيء شـــيطان الكبرياء، نما بنموّ جمالك، وتغذّى على المديـــح، فإذا هو حاكمُك، صوته يرجّـــح كلّ الأصداء الآتية من الخارج.

يا عزيزتي الجميلة، أنت أنانية متكبّرة. وفي هذا ســـرّ ذبولك وسأمك وتعاستك.

حنت الفتاة رأسها باستسلام وتمتمت:

– هناك إرادة أكبر منّي، تتحكّم بي. ولا سلطة لي عليها. ويا ليتني أستطيع التخلّص من قبضتها، والهروب في دروب الحرّية. ليتني أتحوّل إلى حفنة ريح، أو شعاع نور!

وعادَت المرآة تُقَهْقِه:

– الإرادةُ الخارجية ما كانت لتقوى عليك لو لم تجد تجاوبًا عميقًا في ذاتك. لا تُلقي اللوْمَ على عناصرَ بعيدة عنك، إنّك أوّل من يُلام. اعترفي بذلك، وباعترافك تُذلِّلين العقبة الأولى في سبيل تحرّرك من الكبرياء.

انفعلت الجميلة وصرخت:

– اخرســي أيّتها الصفحة الجليدية. إنّــك لإغاظتي تنطقين، كلامكِ يَصُبُّ كبريتًا فوق نار ألمــي. لن أصغي إليكِ بعد اليوم. بل لماذا أحتمل ثقلكِ، وتأنيبكِ؟ لماذا أحتفظ بكِ فلا أحطمكِ... هكذا؟

ولم تكن للمرآة فرصةٌ لِتَدارُكِ ما حدث. هوَتِ الصبيّة بقبضتها فوقها وطرحتها أرضًا. ثمّ راحت تدوسها بقدمين غاضبتين، حتّى حوَّلتْها إلى شظايا برّاقة حادّة الأطراف.

تعالى من كومة الحطام أنينٌ خافتٌ وصوتٌ كسير يردّد:

– لا بأس إن حطّمتني. لتكن بقاياي جسرًا يوصلك إلى ضفّة السعادة. لتكن فعلتك هذه أولى الخطوات نحو تحطيم ما يعصف في رأسك من غرور... الوداع.

***

لم يكن في الدار أحد. وظلّ باب غرفتها موصدًا، واختنقت أصداء الارتطام في الداخل، انحبست في جوّ الغرفة، وتحوّلت إلى ما يشبه دخان الحرائق. وسالتْ من عيني «المها» دموع حارّة. ثمّ هدأ كلّ شيء.

لم تَدْرِ الفتاة كم مضى من وقت وهي مستلقية فوق السرير، غارقة في بحر من الهذيان. ولمّا استيقظت كانت الشمس تملأ جوانب الغرفة وتتكسّر شعاعاتها على شظايا الزجاج، وترسل أضواء جعلت الغرفة تبدو وكأنّها بحر من الألوان الخرافية.

جلست تتأمّل الجمال، وتحاول أن تذكُرَ ما حدث. فعادت أصداء الحوار تُرجَّع في سمعها صافية هادئة، وخُيّلَ إليها أنّ المرآة، برغم ما أصابها من تَفَتُّت، لا تزال أقوى منها، بل إنّ استحالتها إلى أشكال دقيقة منحتها طاقة جديدة تُذكِّر بالطاقة الناتجة عن تفكّك الذرّة. ولم تعد المرآة صفحة صقيلة بلهاء، باردة، تعكس ما يقع فوقها من أشكال بلا إرادة منها أو انفعال. لقد تحوَّلت إلى مختبر للخلق والإبداع.

تساءلت الفتاة عن سرّ ذلك، ثمّ عادتْ تُجري مقارنة بين المرآة وبينها: ماذا تكون النتيجة لو أُخضِعَتْ هي لتجربة مشابهة؟ وتفتُّتها، هل يفيدها أو يبدّل الأوضاع؟

هزَّها مَسٌّ يشبهُ حَفيفَ الأوراق في غابة ظليلة، كان ينبعث من كومة الزجاج المحطّم:

– الآن تَمرِّين في مثل هــذه التجربة، وتحاولين مع ذلك أن تهربي وتدفني رأسَك في الرمل.

– أجل.

هتفت الجميلة وهي تهزُّ الرأس بأسى:

– قلبي يتهافت حطامًا، ويتكدّس طيَّ أضلعي، والذي ينعكس منه ليس سوى مزيد من الظلمة واليأس.

وهو، كاد يكون الشمس المشرقة في دنياي لكنّي حاولت قتله من الجولة الأولى. لم يكن في يدي خنجر أو مســدّس، حاشــا. هناك أكثر من وســيلة للقتل. طريقتي هي الخنق. حاولت تطويقه بعشرات السواعد، كما يفعل الأخطبوط بفريسته. يلتفُّ حولها ثمّ يأخذ بالضغط والتضييق، حتّى تتقطَّعَ أنفاس الضحيّة.

أمّا الحبّ؟

فقد كنت أفكّر فيه من طرف واحد. أرَدْتُ أن يحبّني، ويغدقَ عليّ من عاطفته عطاء يغمرني، ويذيب جليدًا يلفلف قلبي.

كانت عاطفته تســقط فوق وجودي كحبّات الحنطة المعافاة، فتخنقها أشواك غيرتي وأنانيّتي وطمعي...

وهكذا ارتدَّ خائبًا حين اكتشــف أنّ زهرتــه بلا عبير، وراح يبحث، كما قال لي، عن زهرة بنفسج متواضعة، تحيا في زاوية لا تبلغها الأنوار الباهرة وأصداءُ الصخب.

لا لم يستطِعْ فهمي، ولا استطاع سواه. لم يقدر واحد منهم أن يتسلَّلَ إلى قرارة نفسي، ويكتشف جوهري الحقيقي. أتسمعين أيّتها المرآة؟ أنا ضعيفة فارغة. أنا دمية، ولكنّي دمية من لحم ودم وشعور.

متكبِّرة أنا؟

صحيح. وما كبريائي سوى درع أَرتديها لأخفي ضعفي، كما أرتدي نظّارتي الواسعة لأتّقي أشعّة الشمس القويّة وأخفي عيني. ولو سعى، لو كان طويل البال لاستطاع الوصول إلى قرارة الكهف، إلى الكنز الدفين، إلى حبّات اللؤلؤ.

كان عليه أن يُحَطِّمَ قشرة الصدَفة، الغلافَ الكلسيّ الصلد. ولكنه آثر الهرب»...

مرّت فترة صمت، اعتبرتها الفتاة فرصة أخرى تُفْسِحها الشظايا الزجاجية أمامها لتكمل الاعتراف، فتابعت:

– الشيطان الذي تكلّمت عنه يمكن أن يكون واقفًا عند باب الكهف، مثل «الرصد» في أساطير الجنّ. أعدك، منذ اليوم بأنّي سأحاول طرده، لأزرع مكان اللاشيء أشياء المحبّة والتسامح. أعدك بأنّي سأحمل تاج الأنانية، وأقذفه بعيدًا ثمّ أوصد دونه كلّ منفذ.

ولكن قولي لي، بربّك، أيّتها الشـــظايا، هل تشرق، بعد ذلك، الشمس الدافئة، شمس المحبّة، في قلبي؟»...

1965

والزنابق تبحث عن الحبّ

كانتْ «لينا» واثقة كلَّ الثقة بأنّها غرســت البصلة كما كانت تفعل في السنوات العشر الماضية.

حملتْهــا إلى الحديقــة في موعد الزرع، وحفــرتْ في التربة الناعمة حفرة صغيرة، ثمّ وضعتهــا بكثير الدراية والمحبّة ورَدَّت فوقها طبقة رقيقة من التراب وهي تتمتم تعاويذ وأدعية لكي تنمو بصلتها معافاة، بعيدًا عن أذى الحشرات والطفيليّات.

والبصلة تحتاج إلى أيّام قليلة حتّى تُفرخ ورقاتها المعافاة، ثمّ تنطلق من قلبها قصبةٌ مجوَّفة، تحمل براعم الزهرة النادرة.

وكانت هذه العمليّة تحدث في الســنوات الفائتة، تلقائيًّا، بلا عناء أو قلق. فلماذا تأخّرت هذا العام؟

وزنبقتُها النادرة هذه لم تعد مُجرَّدَ بصلة ترسل أوراقًا خضراء وعمودًا يشتعل رأســه بالأبواق الحمراء، مرّة كلّ سنة، مع حلول عيدها... فقد باتت رمزًا للحبّ، وتعويذتَها لِرَدِّ العيون الحاسدة.

وهي تؤمن بالأشياء الصغيرة في الحياة، تجعل لها قيمة، وتخشى أن تفقدها فتفقد معها طعم الوجود ومِلحَ العيش.

تَمَشَّتْ في الحديقة تَتَفَقَّدُ الأزهار الأخرى، الزنابق البيضاء، القرنفل والمنثور... كلّها تنمو وتزهو بأعناقها الخضراء، وكأنّها تتحدّاها... وترسل زهراتها الملوَّنة عيونًا شامتة، تتألّق فيها السخرية، وترقص فيها فرحة الخلاص.

حتّى شجرة الورد الجوري، المترفِّعة عن الصغائر التي تتناقلها ألْسُنُ الثرثارات الصغيرات في الحديقة، أشاحت بأقمارها، وأنشبت أشواكها الحادّة في وجهها.

– لماذا القسوة أيتّها الأخوات؟

طرحت «لينا» سؤالها في الهواء، وهي لا تنتظرُ جوابًا.

لم تكن في مركز القوّة لتتمكّن من الردّ على التحدّي أو التصدِّي للاستفزاز.

استنفدت تلك الطاقة من ذاتها. لا تذكر متى وكيف...

وكان هذا موقفها وهي تراه ينسحب من حياتها، ببطء.

لم ترفع إصبعًا لتُوقِفه، ولم تطلق صرخة احتجاج.

كان حبُهما مثل البحر الأبيض على شاطئ مدينتهما، رحبًا، صافي الزرقة، هادئًا...

وعاشا في كنفه من دون أن يحسبا حساب العواصف وفصل المطر والغيوم. بل كان حبّهما يُحَوِّل الأيّام العكرة إلى ربيع دائم الخضرة، يحيا في نظراتٍ تُشْرِقُ بالعطف والحنان والإخلاص.

وكانت لينا تَغْرُفُ من هذا البحـــر ولا ترتوي... وتَغْرفُ ولا تفكّر في أنّ الماء قد ينفد...

مَنْ يصدق أنّ البحر يفرغ من مياهه؟

***

أســـندَتْ كتفها إلى جذع شجرة الأكاســـيا، وراحت تعبُّ الشذى العابق في الجـــوِّ حولها، وكأنّها تحاول اســـتعادة كلّ ما فقدتْ، الذكريات، الأوقات العذبـــة، أيّام الصبا الأولى... وأهمّ من ذلك كلّه: حبّه.

عادت كلمات تطرق أذنيها:

«والحبّ يا لينا، مثل نبـــات الجنّ، لا أحد يدري كيف ينبت ولا متى يذوي... ولا تقوى العين على أن تحدّد موقع التربة التي تربط جذوره».

«والحبّ، يا لينا، كالرياح، يُســـافر في كلّ اتّجاه، وإذا حاوَلْتِ حصره في مكان ضيّق، انفجرَ به الوعاء، وأصابتكِ شظاياه».

«ويا لينـــا، لا تفكّري في الغد، لِنكُـــنْ لِيومِنا الحاضر. لِنعِش لهذه اللحظات ونقطف زهور السعادة».

كان صوته يأتيها مع همس النسائم وزقزقة العصافير فوق الشجر، فلا يوقظ في صدرها، سوى الحسرة.

وصوتُه من الماضي... من أيّام لقائهما الأوّل. وهو غير الصوت الذي ظلَّ يَطنّ في أذنيها طوال الليلة البارحة، فيزيد لحظاتها الرتيبة ضجرًا وفراغًا.

راحت تتحسَّسُ مَواطِنَ التقصير في حياتها وتصرّفاتها وتتساءل: تراها كانت السبب الوحيد للوصول بحبّهما إلى هذه النهاية البائسة؟

وهو، ما دوره؟

وهل نجاح العلاقة أو فشلها يتوقّف على المرأة وحدها؟..

لماذا تُحَمِّل نفسها المسؤولّية كلّها؟

ولكي تتخلّص من رَشق التساؤلات هَرَبتْ، كما تفعل حيال كلِّ واقع معقّد... امتَطَت سحابة خيالها وسافرت في رحلة إلى الماضي، إلى ذكريات أيّامها الأولى، وراحت تنبشها واحدة واحدة.

كم مرَّة استعادت تلك اللحظات!

لحظات الماضي المُغَلَّفة بالدفء والنور.

كانت تهرع إليها كلّما تسلَّل البرد إلى حياتها، فتقف حيالها تتدفّأ، وتنتعش.

وكان وجههُ يشرقُ من داخل تلك الأيّام فيزيدها ثقة وطمأنينة.

لم تكن في حضوره تطلب شيئًا سواه. ولم تشعر ومعه بحاجة إلى الكلام.

يكفي أن يوجد لتُضَاء الزوايا المُعتمة في حياتها.

يكفي أن يكون، ليُشرق في نفسها ذلك النور، فَينفذ من عينيها، مُؤكِّدًا بلوغها قمّة الهناء والسعادة.

وكان هو في مثل حالها. حضورها يسدُّ كلّ الثغرات، ويعوّضه من نقائصه جميعًا.

وحبُّها يشـــرق من عينيها، كحبال الشـــمس الذهبية، فيخترق وجوده لنيفذ إلى صميم ذاته، ويدفعه إلى مواجهة الحياة بحماسة وفرح.

لم يكن يَحفل بمرور الأيّام. وأيّامهما كانت مسكونة بالحبّ.

الأرض ما كانت تعني له ســوى مساحات من التربة تدوسها قدماها، أو يرفع فوقها الأبنية.

أبنية رائعة من تصميمه.

«كلُّ بناء هو تمجيد لحبّك...»

هكذا أجابها مرّة، حين أبدت إعجابها ببناء شاده فجاء آية في الابتكار والجمال.

ثمّ أردف:

«كلُّ عجيـــنٍ لســـتِ خميرته يفســـد... لا... لا تقولي إنّ لي موهبـــة خارقة، ومقدرة على الإبداع. كلّ ما أُبدعه هو منك. حين لا ألفظ اسمك تَرْفضُ الحجارة أن تتلاحم وتتقارب».

حتّى اســـمها لم يكن يعني لها شـــيئًا قبل أن تتلفَّظ به شفتاه. وبعدها صارت تعشق هذا الاسم، وتُرَدِّدُهُ في سرِّها بغرور.

***

اســـتفاقتْ من غيبوبتها النرجســـيّة على قطرات ماء ناعمة ترشق يديها ووجهها، وتتساقط على أوراق الزهور، فتعانقها هذه، بشغف وامتنان.

حاولتْ أن تقتلع نفسها من مكانها، فوجدت صعوبة، وشعرت بألم يعضُّ كتفها المســـتلقية على الشـــجرة. إنّه الألم الذي ينتابها كلّما حاولت التحرّك من موقع إلى آخر.

وتَساءلتْ: إلى أين أمضي؟

الحديقة بحاجة إلى يديها. في كلّ لحظة تطلب النبتات العناية والرعاية، لكنّ القوة التي فارقتها لم تعد.

أحَسَّتْ، للحظات، أنّ حياتها كحياة النبات، فاقدة حرّية التنقّل.

بـــل هي أقرب إلى نبات البحر، إلـــى نجمة البحر، تلك التي تتكمَّش بالصخر، تحتمي به، وتخشـــى إنْ هي فارقته أن يداهِمَها الخطر:

«لكنّ الصخر لم يعُدْ يحيمك، يا لينا. انْكَشَـفْتِ، وعليك أن تخرجي من مخبأك هذا إلى عين الشمس، لتواجهي الواقع».

الصوت الداخلي يُنَبِّهها، وهي ترفض أن تسمع.

جرّت خطواتها نحو حوض الزنابق، فأحسّت بالغضب يَسْري في عروقها فَيُكَهْربهـا... الزنابق نامية، وكلّهـا تتحدّاها بتيجانها البيض، وتفتح أبواقها لِتَعبَّ قطرات المطر الربيعي بفرح.

انتقلت نظراتها، قسـرًا عنها، إلى الحـوض المتوحِّد، حيث غَرسـتْ بصلة الزنبق الأحمر: كان التـراب جامدًا، قاحلًا كوجه حَلَّتْ عليه اللعنة.

مَـدَّت إصبعًا تخدش بظفرها صفحة ذلك الوجه، ثمّ غاصت أصابعُ يدها في الثغرة الفارغة.

وقفتْ تُردّد الكلمات بلا وعي، ثم تابعت:

– ربّما سرقها أحدهم. العامل الذي يشتغل في الحديقة. ربّما أعجبته زهراتها السـنة الماضية، فصمّم على أخذها. نوع نادر لا يجد له مثيلًا في السوق.

صنف مدلّل لا يتكاثر، وبالتالي لا يصيبه الكساد.

المنحوس، أخذها. سوف أسأله أين غرسها، وأسامحه، شرط أن يُعيدها إليّ، أدفع له ما يطلب من نقود.

هل سَمعت يا «مسعود»؟ أدفع لك ثمنها...

استمرّت في الحوار وكأنّ مسعودًا حاضرًا أمامها:

– نعـــم. قُلْ إنّـــك أخذتها. لا تخف... يا أخـــي، كلنا يُغرينا الشـــيطان، والجمـــال لا يُقـــاوَم. الجمال مُغْـــرٍ، خصوصًا جمال الزهور... وبالأخصّ الزنابق. ثمّ إنّ ســـرقة النبات ليســـت سرقة بالمعنى الصحيح. ألم تســـمع العجائز في ضيعتنا يردّدن: المسيح مرّ على الخُضرَة وقطف؟...

تَرى، عملك ليس خطيئة، ولا جنحة يلاحقك عليها القانون... فقط أنا بحاجة إلـــى هذه البصلة بالذات. أُعطيـــك زنابقي كلّها، وشتلة الورد النادرة، ونقودًا.

أنت لا تدري، يا مســـعود، الســـبب الحقيقـــي لتعلُّقي بها... الكلام بيننـــا، إنّها هديّة، منه. نعم، حملها إلـــيَّ في لقائنا الأوّل، ومعها حمـــل إليّ الســـعادة والطمأنينـــة والفرح. كانـــت الزنبقة الحمراء فألًا خيِّرًا علينـــا، وهذه الحديقة لم تنتعش من قبل، كما انتعشت بوجودها... كأنّما الزهرات أحَسَّتْ بتلك الطاقة الغامضة الجارية في عروق الزنبقة الحمراء، فقامت تتبارى معها، وتنافسها في التألُّق والبهاء.

أرَأَيْـــتَ يا مســـعود؟... بالنســـبة إليك، هي بصلـــة، وأبواقها الحمراء، أبواق... أمّا بالنســـبة إليّ، فهي تخزن عشـــر سنين من السعادة.

إنها ذخيرتي، أحتمي بها من أذى الآخرين...

كانـــتْ يد «لينا» قد غاصت في الثغرة حتّى الرســـغ، وغرقت أناملها في مادّة رخوة، باردة، ظلّت محصورة بين القشور.

لا... مسعود لم يسرق البصلة، ولا امتدّت إليها يد سواه.

إنّهـــا لا تزال هنا، في قلـــب التربة. ولكنّها تهـــرّأت وَنَخَرها السوس.

1969

السَّوط

مكتبة
t.me/soramnqraa

عشرة،

عشرون،

مائة،

عشرة آلاف!

من يستطيع أن يحصي عددَهم؟ هوياتهم؟ ربّما مزّقوها، أو أنّها لا تتعرَّف إليهم. أمثالُهم يُولدون ويموتون بلا هويات. وما الفرق ما داموا لا يشعرون بالانتماء إلى رقعة أرض؟

مُشَرَّدُون هم... نعم. هكذا قال الوجه الرسمي، وهو يرفع السوط ويجمع شَتاتهم.

التفت إلى جمهور المتفرّجين، وابتسامة الظفر تنفرش فوق وجهه المكوَّر وزعق فيهم:

«شوفيه؟ فرجة! كلّ واحد عاشغله. جماعة مشرّدين، هكذا هم. إنّنا نطاردهم، نعم نطهِّر المدينة. إنّهم يشوّهون وجه العاصمة

ونحن بصـــدد عمليّة تنظيف. من شـــاء أن يحتـــجّ فليذهب إلى فوق»...

وتطلّعت وجوه الجماعة إلى فوق: كانت سماءُ تشرين زرقاء صافية، رصّعتها بعض غيوم لا تَعِدُ بالمطر.

وكان في الأجـــواء العليا هدوء ونقاء. أمّا زواريب الســـاحة فكانت مشحونة بالغيظ.

لـــم تلبثِ الجماعة أن تفرَّقت بدافع القرف أو اليأس، وبقيتُ في مكاني. شـــعرتُ بأنّ مســـامير خفيّة تثبّتني بالأرض، وعيناي عالقتان فوق الوجوه المرصوصة داخل الشاحنة الصفراء.

كانوا ينحشرون فيها من كلّ الأعمار:

أطفال ومراهون ورجال جلسوا في الداخل كحيوانات تُساق إلى السلخ، وقد خُتِمتْ أفواهُهم بخاتم القهر.

لفتَ انتباهي أصغرهُم؛ طفل لم يجاوز السادسة، نحيل البنية شاحب اللون، رثّ الثياب، فوق وجهه آثار معارك كثيرة.

فكّرت: أنّ الفئـــران كثيرة في جوانب المدينة، والمزابل تغمر الزوايـــا ولا يحتاج الفأر، فـــي هذه الأيّام، أن يتعـــارك مع زميله فـــوق كومة قمامة. الخيرات وافرة... أمّا ذلك الطفل، فكم له من منافسين!..

وجلس بقربه آخرون، أداروا ظهورهم للأعين الفضولية، وآخرون استسلموا لواقعهم وراحوا يتسلّوْنَ بمراقبة «الأزرار الصفراء» تلمعُ تحت أشعّة الشمس.

أمّا ذلك الشاب في طرف المقعد، فكان مختلفًا عن الجميع. بدا مثل صقر كُسرَ جناحاه. ارتمى في مقعده وقد فارقه عنفوان الشباب. الهزيمة مكتوبة في تهدُّل شاربيه الكثَّين. كان يتفرّس في وجوه خصومه صامتًا، وقد نسي في حضنه كفَّين قويين، لو لاحظ المسؤولُ تحفُّزَهما، لبادرَ إلى صفعه فورًا.

ظلَّ الشاب غارقًا في بحر صمته، وعيناه تقفزان فوق رؤوس الجماعة، وأصابعُهُ المشقّقة ترتعد. ازداد ارتعاشها حين اقترب منه منفِّذ الأوامر العليا، وقفز قلبي بين أضلعي في انتظار اللحظات التالية.

كان سهلًا عليَّ أن أتصوّرَ المشهد التالي:

«الأزرار الصفراء» تصبح في محاذاة الشاحنة، والشاب في جلسته «الستراتيجية» تلك، يستطيع بقفزة واحدة أن يمتطي ظهر حصان السلطان، وتنقلب المأساة إلى مهزلة، وينتصر المغلوبون على أمرهم ولو إلى حين.

كدتُ أصفّق للمشهد البارع، ويصفّق معي كلّ من أحاط بالشاحنة لو لم يتنبّه «الحصان» فينتقل إلى الجانب الآخر.

همستْ صبية تتأبّط كتبًا:

– ماذا فعلوا؟ ماذا تفعلون بهم؟ ما هو ذنبهم؟

وأجابتها سيّدة أنيقة:

– خلّيهم يسرقوا، أشرف!

وانفرجتْ لثّتا حمّال عجوز يقف بقربها، وارتفع صوته هادرًا:

– الأفندي يقوم بعملية تطهير... ها... ها... ها...

زعق صوت الأفندي:

– يا شيبة النحس، دورك قريب.

ازدادت قهقهة الحمّال الختيار، ولم تلبث فقاقيعها أن انطفأت فوق رؤوس الجمهور. جرَّ هامته العملاقة واختفى في أحد الزواريب.

قالت عينا الشاب الصقر:

– لماذا لا تتحرّكون؟ أبعدونا من هنا.

كان في عجلة من أمره. فكَّ زرّين تحت ياقة قميصه القذرة، وأخذ نفسًا عميقًا. وانتفخ قفص صدره يستعدّ للقاء السوط، ولكن الضربة هوت على قفا حمّال عنيد، فرقص السلّ فوق ظهره، ثمّ أفلت من الحزام وراح يتدحرج في عرض الشارع.

كزّ «الأزرار الصفراء» على أسنانه:

– وتُعرقل السير يا نذل؟ اصعد.

حاول «النذل» أن يحتجّ، أن يقول له: «لا مكان لي في العربة المكتظّة بالـركّاب»، ولكن لبطة قوية فاجأته ولم تترك له الفرصة للكلام، فقفز كالكرة ثمّ استقرّ فوق ظهور رفاقه.

ازداد ضغـط الفضوليين على حامل السـوط، فأمر السـائق بالتحرّك، وهدر صوت الآلة فهُزِمَتْ بقيّة الأصوات.

***

وفي ركن آخر من الساحة شـهدتُ الفصل الثاني من المسرحية: الحمّـال الختيار يقف في الوسـط، وقد تجمَّـع حوله زمرة من الرفاق، حاملي الحبال والسـلال، وبائعي أكيـاس الورق، وقفوا يتشاورون في ما عساهم يفعلون في اللحظات التالية.

الوقت قصير، ولن تلبث العربـة أن تعود. ولكنَّ ضغطًا آخر أشدّ وأعنف يطرق ضمائرهم، ويختلط فيه صراخ الأطفال، بدموع النسـاء. ماذا يفعل واحدهم لو عاد في المساء بلا عشاء لصغاره؟ ومن دون أن يجمع غلّة نهاره؟..

ولكن ما يحدث ليس من نوع الدعابة. هكذا قال لهم العجوز:

– يا شـباب إنّهم جـادُّون. وليس في اليـد حيلة، عليكم أن تتخلّصوا من آثار «الجريمة»، وبأسـرع مـا يمكن. اخفوا الحبال، والسلاسـل، وأكياس الورق وتفرّقوا في السوق، تمشّوا كالأسياد أيديكم خلف ظهوركم، وعينكم تتسلّى بمراقبة الناس.

قاطعه فتى جريء:

– وبذلك تظـن أنّنا ننجـو؟ وثيابُنا، ماذا نفعل بها، لباسـنا الموحّد بالرغم منّا. يعرفوننا مهما فعلنا، حتّى لو سـلخنا جلودنا. إنّهم أذكياء.

وردد ثالث:

– ويمارسـون ذكاءهـم علينا وحدنـا. كلّ مـا تعلّموه في المدارس وفي كراسي الحكم، يعرضونه اليوم في «سوق النورية». لا يا سـادة. لن أُنزل السلّ عن ظهري. ولن أستطيع التخلّص من كفيَّ المشقّقين. أنا باق هنا، أمارس العمل وأنتظرهم. وليحملوني إلى السـجن. وليأخذوك أنت وأنت. سوف نغلبهم بالعدد إن لم يكن بالإمكانات. لن تلبث غرف السـجن أن تمتلئ بنا، وترهقهم استضافتنا، فيفلتونا. هذا هو سلاحنا الوحيد.

بدا كلامه مقنعًا. حنى العجوز رأسه متمتمًا:

– أنتم أيّها الشـباب، لكم المستقبل وانفتاحه، أمّا أنا، فأيّامي معدودة، ولا أريد أن أقضيها داخل قفص.

قال الصوت الفتيّ:

– ألم تسـمعْ بالسـجن الحديث؟.. سـوف يدشّـن قريبًا، وحضورك ضروري. إنّه أبعد مما تسـتطيعُ الوصول إليه ولو في الحلم، وأفضل من التخشيبة التي تؤويك مع «أم جربوع» على أيّ

حال... ومـــن يدري، فقد تتوصّل هي إلى إقناعك لتذهبا وتجدّدا شبابكما فيه.

هتف صوت مستعجل:

– الوقت لا يتّســع للمزاح، قرّروا ما علينا أن نعمل، وبأسرع ما يمكن.

بأسرع ما يمكن؟.. فات الأوان.

عــادت «الأزرار الصفــراء» وبدأت المطــاردة. وانفرط عقد المؤتمرين؛ بعضهم ســطا عليه الذعر، فطلــب الهرب من أقرب الأبواب، وآخرون ظلّوا في أماكنهم، يواجهون الســوط بالتحدّي والمكابرة.

ونســي الجميع أن يتخلّصوا مــن أدوات «الجريمة». وهكذا قبضوا عليهم بالجرم المشهود، وهم يقفون وسط سوق الخضار، متذرّعين بالأحزمة، مسلّحين بالسلال، معتمرين أكياس الورق.

ساقوهم واحدًا واحدًا. وكان أوّلهم «الحمّالُ الختيار».

سار باستسلام، وتبعه من تبقّى. شاب وفتية، مراهقون وأطفال. راحوا يدخلون الشاحنة بصمت، حتّى امتلأت وكادت تلفظ اللقمة الأخيرة.

وفي الداخل، استراح الشيخ. فكّ الأحزمة، وأخذ نفسًا عميقًا، ثمّ أطبق شفتيه على المغارة الخاوية.

وقبل أن يردّ الشـــرطي الباب الحديدي ويُحكم إقفاله، التفت إلى العجوز، يختم المهزلة:

– ألم أقل لك: «دورك جاي»، يا شيبة النحس؟

1970

الصوت والصدى

– هل تأمر سيّدتي بالمزيد من هذا الحساء؟

الصوتُ يوقظ أحاسيسها من سباتِ ربع قرن. يَقْتلِعها من حلقة الجمهور المحتفي بنجاحها، يحملُها من فوق الكرسي المريح وينقلها إلى هناكَ، حيث يقوم كوخهم المتواضع على حدود قرية الصنوبر والوزّال.

لم تستطع الدكتورة «سعاد» أن تَرْدَع عينيها عن النظر إلى وجه المتكلّم، للتأكُّد من صحّة ظنّها... لكنّ بصرها ارتدّ بسرعة حين التقت عيناها عينيه:

– هذا غير معقول! يا إلهي كم تتشابه الوجوه!

وقبل لحظات، كان المخلوق المُحَوَّم حول المائدة جسمًا بلا وجه. الضيوف والمحتفلون لا يلحظون وجوه الخدم. في مثل هذه المناسبات تتحوَّل تلك المخلوقات إلى آلات ينحصر وجودها في مركز الحركة وتأدية الخدمة: في اليدين، في الأصابع

وفي السـاقين، أمّا الوجوه فتذوب ثمّ تتقارب، لتتشـابه، لتصبح كلّها وجهًا واحدًا مُركّبًا فوق جسم يرتدي بذْلةَ الخدمة الرسمية.

ولقـاء عينيهما كان مفاجأة بل صدمة عنيفة تـرَدَّدَ دَويُّها بين جدران صدرها. وهو، مثل أيّ خـادم مجتهد، انتقل من جوارها بخفّة ليتابع خدمة سـائر الضيوف، بعدما غرس في عينيها نظراته المتحدِّبة، الحاملة رسالة تأنيب الضمير، وتساؤلًا أخرس: «أهكذا كانتْ مشيئتُكِ؟ أهذا ما أردتِ؟»

(يا للمسـكين المظلوم! لا، ما هذه مشـيئتي، بل هي مشيئة أمّك، ربّة القصر، والحاكم المنفرد في عائلتكم. أتذكر؟)

وكانت الذكرى قد اقتلعت الدكتورة سـعاد العمّار من حدود المائدة الفخمة، وبحر الأضـواء وأصداء الإعجاب المحيطة بها، المطوَّقة وجودها، المنصبَّة عليها، في هذه الليلة بالذات، كزخّات مطر سـخيّة... انتقلت إلى ما وراء خمس وعشرين سنة، إلى أيّام طواها الزمن في كتابه، وبقي أثرها مجذّرًا في وجودها.

وكانـت تلك الأيّـام، بل كان يـومٌ معيَّنٌ منهـا مُنعطفًا قرّر مسـتقبلها، كما كان حَدًّا فاصلًا بيـن عالمين، عادت هي تترجَّح على خطّيهما.

اختفى الخادم، وظلَّ شريط الذكريات يَكرُّ في بالها؛ تقفز إلى عينيها صُورَةٌ مخترقة وجوه المحيطين بها، متصادمة مع أصواتهم، أو هاربة من تسليط أضوائهم.

عادتْ ترى نفسها صبيّة في أواخر سنواتِ المراهقة، تتميَّز عن فتيات قريتها بالذكاء والجدّية والمثابرة، وبتلك الشخصيّة القويّة المستقلّة التي بنتها من عيشها في ظلّ الكدح والحرمان، بين شقاء والدها الفلّاح وتقتير أمّها المدبّرة، أمّ السبعة الذين لم يكن دخلُ الأب يشبعهم «الخبز الحاف».

وكانت إلى جانب ذلك فتاة حالمة، عجز الفقر عن جرِّها إلى هاوية البؤس ومَسْحِ شعاع الأنفة والكبرياء عن وجنتيها.

كانت تعتبر وضعهم حالة عابرة لن تلبثَ أن تزول متى كبر الصغار و«ريّشوا»، وطاروا ينشدون حياةً مستقلّة.

وقد بذلت جهدها كلّه لمساعدة والديها في العمل، خصوصًا لأنّها بكرهما، من دون أن تفرِّط بأوقات الدراسة. وباتت سعاد العمّار قدوة صالحة، تتمثّل بها الفتيات، وتقدِّمها الأمّهات نموذجًا للنجاح.

وكانت هناك عينان شغوفتان، ترقبانها من خلف أسوار القصر الفخم، حيث تقيم أسرة «منصور الدايم».

كان «رضوان»، بكر العائلة، شديد الإعجاب بسعاد. وقد احتفظ بالسرّ لنفسه، فلم يجرؤ على البوح به حتّى لسعاد نفسها. وهي لم تفكّر يومًا في أن تتطاول بطموحها صوب الحدود المحرَّمة، حدود الأسرة الثريّة، وظلّت تسمع من أمّها أمنيات مشفوعة بالحسرة والآهات، تذرّ في نفس الصبيّة المتفتّحة على

الحياة، أحلامًا ورديّة ووعودًا تقول: «يمكنك أن تعيشي في نعيم إذا ما نلتِ إعجاب بيت الدايم».

وكانت تصرف أمّها بلا مبالاة، ولا تعلّق، فتظلّ أصداء الحوار تتردّد في سمعها مثل زقزقة عصفور غامض.

وخرجت الزقزقة من نطاق الغموض لتتجسّد في كلمات مخلصة فاجأها بها رضوان عشيّة تخرُّجها من المدرسة. اقترب يهزّ يدها مبديًا إعجابه مقدِّمًا التهنئة، وظلّت قبضة يده حول راحتها مدّة أطول ممّا تسمح به اللياقة لدى مصافحة عفوية. سحبت يدها وانطلقت تتشاغل بالحديث مع الرفاق والضيوف.

وظلَّ يلاحقها بإلحاح، طوال أشهر الصيف. باح لها بحبّه وإعجابه؛ فهي وحدها من بين سائر الفتيات استطاعت أن تنتزع تقديره وتُثير اهتمامه.

كانت تسير بقربه، في سرب من الصبايا والشباب يقومون بنزهتهم التقليدية في ضوء القمر.

تذكرُ حتّى الآن طعم تلك الليلة والفرحة المرتعشة في صدرها والتي حَوَّلتِ الوجود إلى أرجوحة تُداعبها، وتملأ نفسها بالأحلام والآمال.

كان اعترافه أقصى ما تحلم به فتاة في حدود خبرتها ومكانتها.

ومع أنّ شعور الرهبة كان يخالجها كلّما ذَكَرتِ الفارق الاجتماعي بين العائلتين، إلّا أنّ نيّته المخلصة وعباراته الذائبة

حرارة وحنانًا، كانت تنتشلها من عتبة اليأس وتحملها على دروب الأمن والطمأنينة.

لم تُطْلِعْ والديهـــا، في المرحلة الأولى، على كلّ ما دار بينها وبين رضوان من أحاديث، غير أنّ الزوجين الساهرين، لا تفوتهما ملاحظـــة ما يجري... كانـــا يرقبان تلك العلاقـــة المبرعمة بعين الرضى، ويشجّعان سعاد على تلبية دعوات رضوان للخروج معه في نزهات بريئة على طريق العين، أو صوب الكروم. وكانا يأملان في أن يختم الشـــابان علاقتهما بزواج مبارك يُؤمِّن لســـعاد حياة راغدة في حمى الأسرة الكريمة.

وسعاد لم تكن تَجْهل مكانة العائلة، وأهميّة ارتباطها بها، غير أنّ إعجابها لم يَتَعَدَّ حدود شـــخصيّة رضوان، دماثة طباعه، طيبة قلبه، وحماســـته واهتمامه بها. ثمّة أمر واحد كان يثير في نفســـها الضيـــق والقلق، وهو تخلُّفُ رضوان في مجال التحصيل العلمي، واكتفـــاؤه بما تُؤمِّنُ الأملاك من دخل، وقد قامت بعدَّة محاولات لتدفعه إلى متابعة الدراســـة، وهو القادر على ذلك، ودخْلُ أسرته يؤمِّن له التخصُّص في أرقى الجامعات، فكان يُسْكِتُها بقوله: «أنتِ اختصاصي الأهمّ، اخترتك وكفى».

وكانت تَعلَمُ، في قرارة ذاتها، أنّ هذا الكلام بعيد عن الواقع، ولا يُفيدُ الشابّ في حاضره أو مستقبله. إلّا أنّ حبّها كان يتصدَّى كلّما قام الحوار، ليُسْدِلَ ستارًا على أحكام المنطق.

كان كلّ شيء يسير في طريقه الطبيعيّ.

وانتظرتْ سعاد أن يقوم رضوان بزيارة أهلها الزيارة التقليدية، برفقة والدَيْــه، ليطلب يدها تمهيــدًا لعقد الــزواج. لكنّ الزيارة تأخّرت، وشعرت هي بكثير من الحرج، حين أقْدَمَتْ تحت ضغط أهلهــا على مفاتحته فــي الأمر، وكان جوابُه غامضًــا، بعيدًا عن الواقع، ومُرْتبكًا:

– وما دَخْلُ أهلنا فيما بيننا؟ أُحِبُّكِ وكفى!..

– لكــن هذا لا يكفي في مجتمعنا. أنــت تُدرك أكثر منّي أنّ إرادة الوالدين ضرورية لمباركة العلاقة التي تقوم بين الأولاد.

وباختصار حاول أن يَصرفها عن الموضوع:

– أنا لا يهمّني ذلك. وأسْتغرب أن يَصدُرَ هذا الكلام عن فتاة ذكيّة مثلك.

وعادَتْ إلى ذكائها تستشيرهُ فأكّد لها ضَرورة التريُّث والتحفُّظ، لأنّ الزواج بناء الغد، يجب أنْ يشــاد فوق الصخر، حتّى يستطيعَ الصمود أمام العواصف والاضطرابات. وهي الجانب الأضعف فلا يجوز لها التخلّي عــن كبريائها... هذه فضيلتُها الأولى. الكبرياء، تســتدعيها كلّما ضاقت بها السبل، تستند إليها وتَشْعُرُ بالرضى... بالتعويض.

وكبرياؤها ليست من النوع الفارغ المدَّعي، بل تلك التي تحفظ للمرء ماءَ الوجه فلا يُريقه دفعة واحدة ويمضي في حياته مُطأطأَ الرأس، مغلوبًا على أمره.

بَعْدَ هذا الحوار الصامت، صارتْ تتردّد في قبول دعوات رضوان، وتُقدِّم له مختلف الأعذار، مُتحَمّلة آلام النفس، طاوية جراحها، إلى أن جاءها ذات يوم حزين القلب، شارد اللبّ، منسحقًا تحت ثقل ما يعاني:

– لم يبقَ لي إلّاك يا سعاد.

فاجأتها عبارته، فسألته بنبرة لا تخلو من قسوة:

– خير إن شاء الله. ماذا جرى؟

– قصدتكِ لأشكو ما أقاسي بسببك.

ساءها ضعفه وانهزامه ولم تستطع أن تلين. فازدادت القسوة في كلامها:

– وما دخلي أنا بكَ؟ لم نُخلق لنسير في طريق واحدة. يجب أن تعي ذلك يا رضوان. وكلما بكّرنا في إدراك الواقع، وفَّرنا على نفسينا المتاعب.

– أنتِ لا تفهمينني، يا سعاد. قصدْتكِ لأتّفق معك على خُطّة تنقذنا كلينا من جور الواقع... تعالي نهرب معًا ونتزوّج بعيدًا عن القرية.

كان كلامه صفعة لكبريائها. ولم توفّر القسوة في الرّد عليه.

– ليس لديَّ سبب واحد يدفعني إلى الهرب. أنا لا أخشى مواجهة الواقع وتذليل العقبات، للوصول إلى ما أريد.

– وإذا كان ذلك الواقع يُدعى «الست أم رضوان»، ماذا تفعلين؟

ولم تَردَّ عليه.

كلامه اختصر لها سلسلة من المشاحنات دارت بين الأمّ وابنها، بسببها هي. وهي تعرف «الستّ أمّ رضوان» وعنادَها، وتكبُّرَها، وتعرف الكثير من طموحها بالنسبة إلى أولادها. تريد لهم الصعود على سلّم المجد والثروة. إنّها تتطلّع أبدًا إلى فوق، فهل يعقل أن تحني عنقها وتخفض رأسها لتقبّل ابنة العمّار كنَّةً في دارها؟

مثل رؤيا صافية، أشرق الوضع في ذهن سعاد: رضوان يخرج مطرودًا من جنّة العائلة بسببها، وماذا يستطيع أن يفعل إذا كان أعزل من سلاحيه: الجاه والأملاك؟

ولو كان يحبُّها، كما تفهم هي الحبّ، لتابع علمه واستعان به حتّى يواجه الحياة بقوة شخصيّته. لكنّه اختار البقاء في كنف العائلة، ظلَّ واحدًا من خِراف الحظيرة.

عادَتْ من رحلتها الذهنية لتقول له بهدوء:

– عند هذا الحدّ نفترق يا رضوان. الله معك.

ولم تَعُدْ تصغي إلى تضرّعه ودموعه. كانت قد رفعت درعها الواقية، كبرياءها، حَصَّنت بها عاطفتها، وخرجت من التجربة أقوى ممّا كانت في أيّ وقت مضى.

وبينما كان رضوان يجرّر ذيول خيبته، ويَرْحل في صحراء يأسه، كانت سعاد تستعدّ لهجر القرية، والبحث عن عمل في بيروت.

لم تكن رحلتها سهلة؛ عملت بجدّ في سبيل التحصيل العلميّ، معتمدة على نفسها ومواهبها. وكانت الكلمات الأخيرة التي سمعتها من فم رضوان تعمل كالسياط اللاهبة في ظهرها، فتُضاعف نشاطها وتحثّ خطاها في حقل العلم والعمل حتّى وصلت أخيرًا وأصبحت أستاذة بارزة في أكبر جامعات العاصمة، ثمّ...

ها هم ينتخبونها رئيسة لتلك الجامعة. لم تسأل عن رضوان؟ بلى!

لكنّ الزمن يفرش جلده ويلفُّ الأحاسيس، وفي كلّ يوم تزداد قشرته كثافة وتصلّبًا، وتبقى الذكريات مثل قطرة المياه النارية، محصورة في صمت الأعماق. وكانت مشاغل الدكتورة سعاد تملأ كلّ لحظة من وقتها، ولا تُتيح لها العودة إلى الماضي وذكرياته.

وها هو «الرجل»، في بذلة العمل الرسـمية، يعود مرّة أخرى، حاملًا، وبكثير من الفخر والتحدّي، طبقًا فضّيًّا عليه الصنف الثاني من طعام العشاء...

1970

حُلم صَغير

حبَّة رمل،

حبّة رمل ضئيلة، على شاطئ مترامي الأطراف.

من يحسب حسابها، أو يشعر بوجودها؟

وفي ذات ليلة نبت لتلك الحبّة جناحان، وصارت تجرؤ على المغامرة في دنيا الأخيلة.

رفعتها العاصفة فوق متنها إلى أبعد من حدود الحلم.

لا تذكـــر «رجاء» إن كان ذلك حدث في اليقظة أَم في المنام. كلّ ما تعرفه أنّها أبصرت نفســـها في غرفة مظلمة... مظلمة حتّى مع قنديل الزيت الناعس الذي تعوَّدت أمّها أن تســـنده فوق رفّ المدفأة.

كانت العاصفة تخبط جدران الكوخ بلا رحمة، وشظايا البرق تنفذ من شقوق النوافذ الواهية، المسنودة بأغصان الدفلى. والرعد! يا للرعد كم كان عنيفًا! من أين يأتي ذلك الهدير كلّه؟

قالت لها جدّتها: «إنّ بقرة المســاء تتثاءب... وتكون النتيجة هذه الهزّات التي تُزلزل أركان المنزل.»

شَــغَلَها القولُ فترة من الزمن، وراحت تتساءل: «كيف تعيش تلك البقرة؟ هل في الســماء مراعٍ وحقول؟ ومن يسندها حتّى لا تقع؟»...

ولم يكن هناك من يجيب عن أسئلتها ولو مرّة واحدة...

***

النــوم يهجر عينيها هــذه الليلة، ومن حولها الجميع يشــخرون، وتنعقد أنفاســهم في جوّ الغرفة، فتــذرّ فيها بعض الدفء. وحين تقــوى العاصفة، يطغــى ضجيجها على همــس الأرواح الهادئة وتتكاثف غياهب الوحشة في النفس الصغيرة.

الأسرة كلّها تنام «شَكًّا»، مثل رؤوس البصل في ثلم مستيقم. أخوتها الخمســة، أمّها وجدتها العجوز؛ يستنِدُ الواحد إلى جانب الآخر، وكأنّه يحتمي به؛ وهي مكانها في الزاوية، ملاصق للجدار.

شَعَرَت ببرودة الحجر تسري في عروقها، فشدَّت الغطاء فوق رأســها، لكن الخوف ظلَّ يحُوِّم حولها كطائرٍ مجهول. أغمضت عينيها، وسدّت أذنيها، حتّى لا تسمع حفيف الجناحين، ولا تبصر عيني الطائــر تحدّقان إلى وجهها. لكــنَّ محاولاتها ذهبت عبثًا. كلّما شــدَّت جفنيها ازداد حجم الطائر، ثمّ صارت تبصره ينحني

فوق الأرض، يلتقط فتات الخبز، يضعه في يدها أو يحمل بمنقاره بعض ثمار الحقول.

فَتحت فمها لتسأله لماذا لا يحملها فوق جناحيه ويرحل، يطير عبر البحار، إلى حيث يقيم أبوها في دنيا الاغتراب البعيدة، لتتفقَّد أحواله، وتطرح عليه أسئلة كثيرة وتحمل أخباره إلى الوالدة، وأهمّ من هذا كله، تغرف من جيوبه مالًا ينقذ العائلة من مجاعة الشتاء؟

وغابت صورة المجنّح لحظات لتحلَّ محلَّها صورة أمها في الكنيسة. كانت ترافقها في تلك الصبيحة الباردة، كما هي عادتها، ووقفتْ بقربها تصلّي بخشوع وإيمان، تتمتم الكلمات القليلة التي حفظتها من جدّتها. والأُم ساجدة أمام أَيقونة كبيرة لأحد القدّيسين، تقرع صدرها وتبكي.

لماذا تبكي أمّها؟ لم تفهم. لم تجرؤ على السؤال... كانت تحبّ الصلاة، وترتاح إلى الجوّ العابق بِفوْح البخّور، المغمور بأنوار الشموع الهادئة. ومن قبل، كانت أمّها تصلّي بهدوء، فلا تكاد الكلمات تخرج من حدود الشفتين، وكانت تصلّي بفرحة وانتعاش.

وأمّها لم تكن الوحيدة الساجدة تبتهل بخشوع، وتسكب من عينيها الدموع؛ لقد هالها أن تفعل ذلك جاراتها، ونساء القرية جميعهنّ... حتّى صوت الكاهن لم يكن قويًّا، ممتلئًا غبطة، بل

خالجته رعشـــات وشـــكوك. لم تفهم من «الطَّلْبة» التي ختم بها خدمته سوى كلمتين بقيتا عالقتين في ذهنها: «أهوال الحرب»:

«أنقِـــذْ يا ربّ عبيدَك مـــن أهوال الحرب، مـــن ويلات النار والدمار، ورُدَّ المغتربين إلى ديارهم، والجنود إلى أوطانهم، وارفعِ البؤس عن رؤوس الأطفال، واغرسْ في دروبهم الفرح والسلام».

وتَموّجَتْ في جوّ المعبد أصوات المصلّين: «آمين».

وأَبصـــرَتْ رجاء، من طرف عينها، دموع أمّها تنهمر فتغســـل الخدّين، وتنساب من أسفل ذقنها قبل أن تلتقطها بالمنديل.

وقُبَيْلَ مغادرتها الكنيسة مَسحتِ الأمّ الأيقونة بأطراف أناملها ورفعتها إلى شـــفتيها تقبّلها بخشـــوع، ثمّ قادت ابنتها وسارتا في موكب المصلّين.

ظلَّتْ عبـــارة الكاهن تنقر جدران صدرها، وتضرب رأســـها كالمطرقة:

«أهوال الحرب»، سمّاها الكاهن.

وضـــع أصبعه على العلّـــة، وهي لم تكن تدرك ســـببًا لذلك التحوّل الرهيب الذي طرأ على قريتها.

الشباب هجروا الساحات والحقول، وخرست أهازيج الصبايا بين الكروم، والأطفال يتشرّدون بأســـمال بالية، ويكاد الواحد لا يجد ما يســـدّ به جوعه، بسبب الجوع والقذارة، وانتشرت أمراض

لم تسمع بها القرية من قبل، ولم يعد البوسطجي يُطِلُّ من بعيد، مُلوِّحًا برسائل الأحباب.

انقطعت أخبار والدها، ومعها انقطعت اللقمة عن أفواه الصغار.

تكوَّمت أمّها عند العتبة، وقد جمدت عيناها وفارقتها حيويّتها.

اقتربت هي منها تحاول مؤاساتها فلم تدرِ كيف؛ ثمّ سمعتها توجّه كلامها إلى الجدّة: «إبقي أنت مع الأولاد، وسوف أمضي إلى المدينة لأبحث لي عن عمل في بيوت الأثرياء».

قالت أمّها كلمتها، وقامتْ تُعِدُّ حاجاتها، وأحسَّت «رجاء» أنّ الأرض مادت بها، ثمّ راحت قشرتها تتشقَّق تكاد تبتلعها، وغرقت في بحر من الخوف لا قرارة له. أمّها، بعد أبيها، تغادر البيت، بحثًا عن اللقمة!..

أمّها، الحنون، الوردة الحلوة المرفَّهة، تذهب إلى المدينة، لتطرق أبواب الغرباء، وتعمل في منازلهم!

ما أغلى ثمن تلك اللقمة!..

***

عاد الطائر يحوِّم في عينيها، وازدادت حدَّة نظراته وجرأتهما، ثمّ أبصرت منقاره الحادّ مصوَّبًا نحو وجهها، فأطلقت صرخة دوَّت لها أرجاء الغرفة وأيقظت الأمّ، فهرعت إليها تحتضنها وتؤاسيها.

كانت الطفلة، ابنة التاسعة، ترتعش كورقة الخريف، وتتمتم كلمات غير مفهومة. حملت إليها أُمّها جرعة ماء، وراحت تسأل عمّا بها فسمعتها تتمتم: «الحرب... الحرب»...

وألحَّتْ أُمّها بالسؤال:

– ما لها الحرب يا رجاء؟ أنا أمّك، أخبريني، إنّه كابوس، لا تخافي يا حبيبتي.

وفي لحظة تَذَكَّرَتْ رجاء أحداث الأمس، وتصميمَ أمّها على هجر البيت وحَمْلِ ذلك النير الثقيل، فقرَّرت أن تضع حدًّا لهذا كلّه وقذفت كلامها بجرأة:

– سوف تنتهي الحرب.

– من قال لكِ ذلك؟ من أبصرتِ في المنام؟ أخبريني.

وقذفت رجاء اعترافَها الخطير:

– العذراء. أم يسوع، هي قالت لي: «سوف تنتهي الحرب، لا تخافوا... قريبًا يعود السلام»...

انحنتِ الأم فوق وجه ابنتها، تغطّيه بالدموع والقبلات:

– نامي يا حبيبتي، نامي بسلام. السَّلام على اسمها العذراء، ظهرت في بيتنا. اختارت تواضعنا وبساطتنا لتصنع أعجوبتها. نامي يا طفلتي، ولتغمرك بركات الله.

***

لم تنم الطفلة، ولا غمضت عينا أمّها.

تَفَجَّرَ في صدر رجاء خوف جديد. شعرتْ بأنّها حَمَّلتْ نفسها مسؤولية ثقيلة لن تستيطع النهوض بها. لكنّ المغامرة تَسْتأهِل هذا الجهد. يكفيها أن تُوقف أمها عن الذهاب إلى المدينة.

أمّا الأم، فقد سيطرت عليها الحيرة والذهول.

رفوف من الفراش الملوَّن راحت تتراقص أمام عينيها.

عاد إليها أمـــل كانت قد أضاعته من زمـــان... ارتعش قلبها بجديد نسيتْ طعمه: الخلاص قريب. سوف تتراجع عن قرارها، وتنتظر تحقيق النبوءة، وتبقى إلى جانب رجاء لتساعدها في حمل النعمة الجديدة التي حلّت عليها.

متى، متى يطلع الصباح؟

عند بزوغ الفجر، سوف تَطْرق باب جارتها أم عيسى وتبشِّرها، وتنشر الخبر في طول البلاد وعرضها:

سوف تنتهي الحرب. العذراء ظهرت على رجاء.

المُعجزة تَمَّتْ في بيتها.

رفعتْ عينيها في صلاة شـــكر حارّة، وشـــعرت بأنّ للدموع طعمًا لذيذًا.

***

مثــل هذا الحدث العظيم لا يجوز أن يبقى ســرًّا، خصوصًا حين يكون الناس شــركة واحــدة في تَحَمُّل الألم والعــذاب، وانتظار الخلاص.

هرع الجيران إلى كوخ رجاء، وتقدَّمتِ النساء يتلمَّسن بأيديهنَّ ثوب الطفلة، ويتبرَّكن بالنظر إليها، وانهالت عليها الأسئلة من كلّ صوب:

– كيف بدتْ لك العذراء؟ هل كانت تحمل الطفل يسوع؟ هل أبْصَرْتِ هالة من نور تحيط بوجهها؟ هل لَمســتْ وجهك بيدها؟ تذكَّري كلّ كلمة قالتها لك يا رجاء. إحذري أن تنسيْ حرفًا، هذا لا يجوز. هذا حرام...

وكان «أبونا جريس» في مقدِّمة المستطلعين. أصاخ إلى كلّ ما قيل، ولم يفته صمتُ الطفلة، فأمسكَها من يدها بلطفٍ وهو يردِّد:

– لا تزال مأخــوذة بجلال الرؤيا! تعالي إلــيَّ أيتها الصغيرة العزيزة، وتقبَّلي منّي هذه الهدية.

وعلَّق حول عنقها أيقونة تحمل رسم العذراء والطفل يسوع. ثمّ التفت نحو الجمهور وهو يردِّد قول السيّد، ويؤكّد شهادته في الحدث:

«إن لم تعودوا كالأطفال فلن تدخلوا ملكوت السموات».

***

الفرحة التي وُلدتْ في بيت رجاء، امتدَّت في عروق القرية. صارتْ فرحــةَ كلّ بيت، خصوصًا بعدما طار الخبر إلى القرى المجاورة، وصار الناس يقصدون الطفلة «القديسة» ليتبرَّكوا برؤيتها، ويسمعوا شهادتها.

حملــوا نذورهم إلى الكنيســة، وانتعشــت قلوبُهم بالإيمان، فرفعوه درعًا في وجه الحرب.

أجل، تلاشــت الأثقال عن ظهور الناس، ورزحت كلُّها فوق ظهر مخلوق صغير، بريء، لم يعد يعرفُ طعْم النوم أو الراحة... فوق ظهر «رجاء»!

لم تكنْ تحســب حســابًا لما جرى. فَكَّرتْ أنّها تلعب بكرة صغيرة، تُدَحرجها لتفرَح، ويُســرُّ بها مَن حولها، فإذا الكرة تُفْلِت من يدها، وتروح تجمع في تَدَحرجها طبقات كثيفة، حتّى تحوّلت إلى جبل ثقيل يَجْثم فوق الضمير. لم تستطع التراجع، ولم تجرؤ على البوح بالسرّ حتّى لأقرب الناس، حتّى لأُمّها.

أحسَّــتْ بِهَوْلِ الفراغ، وراحت تُصارع لتنقذَ نفسها، فلم تجد أمامها ســوى باب واحد، بقي مفتوحًا لها ولكلّ ثقيل حمل: باب الصلاة.

هجرتْ بيتها وأقامت في الكنيســة، تصلّــي، وتبكي، تطرق صدرهــا بيد الندامة، تتوسَّــل إلى العذراء لتنقذهــا من خطيئتها.

ونسيت العالم، والحرب والأهل، والإخوة، وقاصدي التبرّك. صار همّها الوحيد الوصول إلى نَيْل الغفران.

وكان وجه العذراء يطلّ عليها من الأيقونة المنوَّرة، فيؤنِّبها بلطفٍ، مثلما تفعل أمّها، أو يحنو عليها ويرفعها من سجودها المضنيّ فوق البلاط البارد. وأحيانًا كانت تتخيَّل اليدين الناعمتين ترتعشان حنانًا، وتتحرّكان لتمسحا جبينها بالزيت المقدس.

والناس، في الخارج، كانوا ينتظرون بصبر، ويعتبرون حماستها للتعبّد من طبيعة المعجزة والتحوُّل الذي جرى...

***

مرَّت أيّام وليالٍ، وَضَعُفتْ «رجاء». شحب وجهها ولم تعد تذوق من الطعام سوى القليل الذي يُقيت ولا يُشبع ولا يُغذِّي. وكلّما ازداد نحولُ الجسم، تألَّقتِ العينان بنور عجيب...

وظَلَّت القرية تمارس طقوسها الموروثة، لكنّ جوَّها امتلأ بحماسة جديدة، برجاء جديد. ولمّا حلّت ليلة العيد، بقيتْ أبواب البيوت والقلوب مُشرّعة، تنتظر بصمت... وعند انتصاف الليل غصّت الكنيسة بالمؤمنين، من الشيوخ إلى الأطفال، جاؤوا ليحضروا القدّاس ويقدّموا شكرهم من أجل النعمة التي حَلَّت بينهم.

انتهى القداس وتفرَّق المؤمنون وبقي شبح ضئيل ساجدًا أمام أيقونة العذراء.

لم تشعر «رجاء» بخُلوِّ الكنيسة...

حتّى الكاهن، خرج وأغلقَ الباب خلفه.

كانت هي قد اجتازت الجسر الذي يربط بين الوجود وما وراءه، خلعتْ من ذاتها العالم الخارجيّ ودخلت في دنيا الذهول، تقودها يدٌ ناعمة، تشعُّ الأنوار من أطراف أناملها. استسلمت الطفلة لليد الحانية، وشعرت بفرحة لم تَذُقْ مثلها في حياتها، وانتشرت السعادة في عروقها وراحت تتضاعف وتتفجّر، وترفعها إلى عوالم لم تحلم بمشاهدتها، وأحسَّت في ذاتها برعشة الشوق، وبالطموح إلى رؤية المزيد من تلك الجمالات. رفعتْ بصرها من اليد إلى الساعد، فإذا هناك طفل رائع الجمال تغمره النشوة والسعادة. سمعته يكاغي مثلما يفعل الأطفال في بحبوحة الشبع والهناء... وفكَّرت لحظة: الطفل لا يجلس وحيدًا هنا... إنّه فوق ساعد أمّه... في حضن أمّه...

وانفرجت شفتا الوجه الأنثوي الوادع عن ابتسامة حانية، وانبعث من العينين شعاع مضيء، دافئ، مُطَمْئِنٌ، وسمعت الشفتين تتمتمان:

– أمّه أنا. وأمّك أيضًا، أيّتها الطفلة الحبيبة. هاتي يدك... تعاليْ إليَّ...

1972

الموجة التاسعة

أَنْظُرْ إلى وجه المرأة، إلى العينين الزرقاوين، والشفتين الدقيقتين، والبشرة المكسّـرة، وأُصغي إلى الصوت المرتجف يخرج وكأنّه من أعماق هاوية النسيان: «كان، يا ما كان...!»

تَحْكي، وأنـا أحمل الورقـة والقلم، وأجلـس قُبالَتَها على الكرسيّ لأُسجّل كلامها.

ملكة كانت. سيّدة فوق عرش.

وهوى العرش، وتبدّلت الأيّام، وها هي في زاوية النسيان.

عجوز تناهز الثمانين، ولكنّها امرأة، بكلّ ما تحمل الكلمة من معانٍ.

امرأة وشاعرة. امرأة وجميلة... كانت جميلة، عفوًا!

(كم هو صعب سـماع هذا الفعل الماضي الناقص، خصوصًا إذا اتّصلت به تاء التأنيث!)

***

إنّها السادسة صباحًا، ولا يزال نور الفجر ينزلق متباطئًا، متثائبًا، والسماء تمطر، والرياح تهبُّ من جهات الأرض الأربع... وأنا أفكّر في لقائها.

قال لي صديقها، رفيق رحلتي:

– تنتظرك باكرًا. بين الساعة الرابعة والسابعة صباحًا. هذا أفضل أوقات يومها. في مثل هذه الساعة تنهض. كزنبقة الفجر تنهض، وتتزيّن، وتجلس تستقبل الزوّار أو ترشف القهوة.

وسألتُ صديقها:

– ولماذا لا تستقبل في الساعات الباقية؟

– لأنّها...

ولم يُكمل. كنّا على عتبة دارها، وكانت تقف في الباب، تنتظر.

وفهمتُ منها، في ما بعد، أنّني واحدة من القلائل الذين تَخطَّوا تلك العتبة، منذ أن استقالتْ من العالم.

وحدها تعيش.

بعد السابعةِ تُقفلُ بوّابة الحديد الخارجية، وتأوي إلى شرنقتها.

***

أعود أتأملُ عينيها الزرقاوين، وألاحظهما تغوصان إلى أعماقي:

– تكتبين إذًا؟

وترتعش شـفتاها الرقيقتان، ويُشـرِقُ وجهُهـا بنور عجيب، وتسرح مع الذاكرة:

– وأنا كنت أكتب. ثمّ جاءت أيّام عاصفة، خطفت الورقة من يـدي وانتزعت القلم، وطرَحتهُ في البحـر. وامتزج الحبر بالمياه المالحة... زُرقة البحر من المداد النازف من قلمي، وأحيانًا تتموَّج صفحة الماء بالاخضرار.

تتابع حكايتَها، وأغرقُ في صمتي، وتساؤلي:

– لماذا أنا هنا؟ ماذا يُجدِيني هذيان المرأة؟

كان هَمِّي أن أخرج بقصّة سياسـيّة عـن حياة زوجها الملك الراحل، عن حياتها أيّام العز والملك، ثمّ الانهيار الذي تلا...

الأسئلة تتراكم في صدري، وفوق شفتيّ، فألجمها، ويبقى نظر السيدة مسلطًا عليّ، والشفتان تتحرّكان:

– كتبتُ الشعر، لنفسي طبعًا. أحيانًا كنت أكتب للبحر... هل تحبّين البحر؟ أجيبي أيّتها الصبية... إنك تَردّينني في هذه الصبيحة إلى ذكريات غريبة انزلقت من بالي... كاتبة أنت؟ ولماذا تكتبين؟

ثم تُتابع ولا تَنتظر جوابي:

– وأنا كتبتُ الشـعر. كنت أقول لجلالته: «أرجو أن تسـمحَ لي بأن أخرج إلى الشاطئ إلى مكان منعزل بين الصخور، لألتقط الأصداف، وأُغطِّس قدمي في الماء... دعني أخرج ولو مرَّة واحدة بلا حرس أو مرافقين. أتخفّى وأمشي، ولا أسبّب لك الحرج»...

وكان يرفض أبدًا. يعقد حاجبيه، ويسلِّط عليَّ نظراته النارية، ويأمر: «لا تتحرّكي من هنا. أنت لا تعيشين لنفسك، لنزعاتك الشخصية، تعلَّمي كيف تقتلين الخلجات السخيفة التي تُحرِّضك على هذا السلوك. أنتِ مسؤولة عن الرعية... تطلبين الخروجَ إلى البحر، والجلوسَ فوق الصخور المنعزلة لتكتبي الشعر، وتلعبي بالأصداف؟ أيّتها المرأة الغبيّة، متى تنضجين؟»... وكنتُ ألوذُ بالصمت... وكان أكبر منّي سنًّا، هو الملك وارثُ المجد، وأنا فتاة من عامّة الناس.

أقولُ لك، بصراحة، أيّتها القادمة مع الفجر، كنت صغيرة وجرفني الإغراء، فلمْ أَفكِّر في المستقبل.

عِشتُ أيّامًا وليالي أحلم بالجواهر، بالثياب الفخمة، والطيالس والتاج، والناس تنحني أمامي، تقبّل يديَّ وأطراف ثوبي. كبر رأسي حتّى كاد ينفجر. رحت أطير فوق غمامة أحلامي، وأرتقي، ولم تعد رجلاي تلامسان التراب.

واستيقظتُ ذات صباح، وقفتُ أمام المرآة. أنا، الفتاة العاديّة ابنة عامة الشعب، وقفتُ، وأسدلت شعري الكستنائي على كتفيّ، وامتلأتِ المرآة بجسمي الأهيَف، المتدثّر بثوبٍ منسوج من الغمام. حملت التاج ورفعته فوق قمّة رأسي مثلما فعل نابوليون، وقلت لصاحبة الوجه المطلّ عليّ من صفحة المرآة: «أُنصِّبُكِ ملكة. من الآن فصاعدًا أنت سيِّدة هذا القصر»...

كنت أُرجِّعُ كلامَ قاضي البلاط. رَدَّدْتُ ما سمعته كالببغاء. وراق المشهد لعينيّ، فأعماهما عن رؤية ما يحيط بي من زوايا معتمة.

***

يُفتح بابٌ جانبيٌّ وتدخل امرأة تحمل صينية فوقها فناجين قهوة وقمقم ماء الزهر. تقدّم للملكة فنجانًا، ثمّ تقترب منّي، تؤدّي واجبها بصمت ووقار وتخرج.

تتناولُ الملكة علبةً ذهبية، وتسحب منها لفافة تضعها بعناية في مبسم مرصّع بالياقوت. يقفز رفيقي، وكان صامتًا طوال الوقت، فينحني أمامها، ويشعل رأس اللفافة. تسحب الملكة نفسًا طويلًا، وترخي عليّ نظرة حالمة:

– ألا تدخنين؟ فتاة عاقلة!

تقولها بسخرية عذبة، ثم تتابع اعترافها:

– كان التاج ثقيلًا، ثقيلًا جدًا، لا يسمح لرأسي بالحركة. حين أحمله، لا أعود أفكّر أو أحسّ. وتصبح رحلات نظري محدودة داخل جدران القصر.

وفي يوم، فكّرْتُ في أن آخذ من التاج إجازة. خلعته وتَخفَّيتُ بثياب الوصيفة، وخرجت من دون أن يعلم بذلك أحد.

وكان الملك مسافرًا.

رُحت أمشي حتّى وصلت إلى مقرّ حلمي، إلى الصخور المنعزلة على الشاطئ. هناك، خلعت حذائي، وغطّست رجليّ في الماء وجلست فوق صخرة أتأمّل الأمواج وأغنّي.

كانت وشوشات البحر مغرية، جعلتني أترنّم، أرقص وأحلم بالطيران. تلك المغامرة أروع من الحلم، أبعد من أن توصف بالكلام. ولمّا عدت إلى غرفتي فكّرت في أن أستعيدها، وأحييها، فجلست أكتب. وإذا بي أكتشف فوق الورق كلامًا لا أستطيع أن أهمس به لأحد، ولا أجرؤ على نبشه من بين جدران اللاوعي.

فَرِحتُ بهذه المقدرة الجديدة، وصرتُ أُكرّرها. وتكدّست في خزانتي أوراق مملوءة بالكلام الغريب. كلام لو اكتشفه الملك لقطع رأسي. لكنّنا، نحن النساء، لا نعدم حيلة للاحتفاظ ببعض الأسرار. وصار مفتاح الخزانة أهمّ من مفتاح خزنات الجواهر. وحين كنت أقترب من جدرانها، كنت أسمع أصواتًا وهمّاتٍ، ويخيّل إليَّ أنّ الكلمات تتنفّس، والذكريات تحيا وتتحرّك، فأنبشها في ساعات وحدتي، وأعيدها، وأستأنس بحضورها. ولم تلبث أن استعبدتني. صرت أحلم بلحظات تتيح لي الفرصة لأكرّر المغامرة، فأهرب إلى البحر، وأجلس فوق صخوره، أبوح له مكنونات الصدر.

كان ذلك صعبًا، بل مستحيلًا في حضور الملك. وهو لم يعد يسافر ويترك الرعية. وصار الرعبُ أقوى من الملك. وراحت

صحّتي تعتلّ، ونحل جسـمي، وذابت روحي، وبهت الوجود في عينيّ، فاستدعى الملك أشهر أطبّائه لمعالجتي.

***

نفضـت الملكة رماد لفافتهـا، وتوقّفت عن الـكلام، وانتظرتُ، وطالت فترة الصمت.

وفجأة، لمعتْ في عينيها شرارة فرح:

– إنَّكِ توقظين شياطين روحي في هذه الصبيحة الهادئة. من أين أتيتِ أيّتها الصبية؟

ثمّ التفتت إلى رفيقي تسأله:

– من أين جئتَ بها يا مروان؟ قلت لك ذات يوم، إنّنا انتهينا. أقفلنا الباب على الماضي وختمناه بالشمع الأحمر. لم أعد ملكة. أنا اليوم اسم منسيّ. امرأة من عامة الشعب، كما كنت قبل الحلم. لم يَتَبدَّل شيء. أبصرتُ حلمًا وانتهى.

وعادت إليَّ:

– تعرفين قصّة «سـندريلا»؟ مثّلتْها ذاتَ مساء وانتهى الدور. وأنتِ جئتِ تلتقطين لي الصور وأنا أهبط السلّم.

تسـألين عن براعتي في التمثيل؟ وأجيبـك: إلى حدٍّ ما. أيّام الفتوّة والطموح كنت مسـتعدّة لأركب موجـة طموحي إلى أيّ مرفأ، فكيف لو كان ذلك المرفأ، قصرَ ملك البلاد؟

يا صديقتي، لو نترك الماضي ونعود إلى هذه اللحظة، نَبسطُ أقْدامنا فوق سطحها، فتخبرينني عن نفسك، عن عملك عن أحلام بنات جيلك... أنت، هل تحلمين بالزواج بملك أو أمير؟

لا. لا تجيبي. أعرف ماذا ستقولين. لا تخبريني عن تبدّل اتّجاه الريح، وأحلام الجيل الجديد. هل لديكم وقت للأحلام؟

تكتبين! ماذا يخطّ قلمك؟ الشعر؟ من يتوقّف ليصغي إلى الشعراء؟

ومن دون أن تترك لي المجال للإجابة، قفزت من مقعدها، واقتربت تغمرني وقد ازداد العمق في تموّجات العينين، وزغرد بحرُهما الأزرق:

– إياكِ أن تلمسي ذلك الجمر المُحرق.

ثمّ تراجعت إلى مقعدها، كأنّها ندمت على هذه الحماسة المفاجئة، وسحبت لفافة جديدة، أشعلتها وراحت تدخّن بصمت.

طرح مروان حصاة صفحة البحيرة الراكدة:

– لو تَتَكرَّم سيدتي، وتُطلع الضيفة على بعض قصائدها. إنّها تعشق الشعر.

تأمَّلَتْه مليًّا لتفهم غاية كلامه، قبل أن تردّ: «وماذا لو تسرّبتْ إحدى القصائد إلى الخارج، هل تتحمّل أنت المسؤولية؟».

وتجرّأت أنا بملاحظة: «لكنّ سيدتي لم تكتُب هذه القصائد لنفسها.

وما نفع الذهب لو دُفن في التراب؟»

فانحدرت نظرتها إليَّ مؤنّبة:

– أوّلًا تبصرين كيف أعيش لأهرب من العالم الخارجي، من الآخرين؟... صار اسمي النسيان.

– وماذا تنوين أن تفعلي بقصائدك؟

– هــذا مكتوب في وصيّتي. تُحرقُ ويُطرح رمادُها في البحر. تعود إلى مصدرها.

– تقصدين أنّها مستمدّة من وحي البحر؟

– للبحــر أكثــر من معنى، يــا صغيرتي. الماء هــو الصفحة الخارجية. هناك بحارٌ كثيرة تتراكم في ذواتنا. كما أنّ هناك البحر القناع، نطويه أو نفرده ونرتديه ســاعة نشاء، لمن نختار أن نخفي عنهم حقيقتنا.

– وعن أيٍّ من البحار، كتبتِ؟

– عــن بحر رقيق، رحب الصــدر، كان ينقلني كلّ ليلة، فوق أمواجه، فنجتاز أسوار القصر، ونهرب لنتنزّه في قوارب الصيّادين، في الجزر البعيــدة. ونهرب طوال الليل، حتّى إذا ما انبثق الفجر، وتسلّلت خيوطه تمسح ندى الليل عن عيوننا، أعادني إلى حياتي اليوميّة، لأمارس المهمّات الملقاة على عاتقي.

– أفهمُ من هذا أنّكِ كنتِ تعيشــين حياة مزدوجة: في النهار ملكة، وفي الليل صيّادة تطارد جنّيات البحر.

تفجَّرَ الشـــررُ من عينيها وردّت علـــى الفور: «ومَن مِن الناس لا يعيشُ تلك الازدواجيـــة؟ الملوك بصورة خاصّة، أولئك الذين يرتـــدون التيجان ليخفوا الضعف البشـــري. آه لـــو ترين كم هم ضعفاء، وأشـــقياء قلقين! تصوّري شعور الإنســـان الواقف طوال النهار فوق قمّة الجبل. وحـــده فوق، والآخرون، والأكوان، على مســـافات بعيدة منه، عند الســـفح. أقول لك، هذا الشـــقيّ يعيش على حافّة الرعب. أقلّ زلّـــة قدم ويهوي. حصاةٌ صغيرة تتدحرج تحت قدمه، قد تجلـــب آخرته. لذلك يحشـــد طوابير الموظّفين الذين لا همَّ لهم سوى كنس الأرض تحت موطئ قدمه، وتنقيتها من الحصى والشـــوك، وكلّ ما يمكن أن يُهدّد وجوده الشاهق، أو يجفله ويدفعه إلى السقوط.

فقلتُ بصوت ضعيف:

– صعبةٌ، إذًا، حياةُ الملوك. صعبة ومستحيلة!

ووافقتْ جلالتها:

– لهـــذا أوصيك بألّا تحســـديهم على معيشـــتهم. في المرّة المقبلة حين تبصرين واحدًا منهم أشـــفقي عليـــه. إنّه بحاجة إلى العطف والرحمة أكثر من أيّ مخلوق.

***

قَطعــتِ الملكة كلامَها وقامت إلى غرفة جانبية، ثمّ عادت تحمل صندوقًا من القطيفة الخمرية اللون، وضعته أمامي وراحت تعالج غطــاءَه بمفتاح تربطه بســوار في معصمهــا، وأخرجت منه رزمة أوراق نثرتها أمامي وهي تردّد:

– خُــذي اقرأي. هذا ما جئتِ من أجله، جئت تكشــفين عن وجهي الآخر. الزواية المجهولة الغامضة. حشــرية الناس لا حدّ لهــا. ومع ذلك أحببتكِ. أحببــتُ اهتمامَك بي. وقد لا تكون لي فرصة أخرى لأخرج هذه الأوراق قبل أن تذهب إلى النار ثمّ إلى أشداق اللجّة.

تفهمين اللغة الفرنســية؟ أعتذر منك، لجــأت إليها لأنّهم لم يعلّموني لغة أجدادي. أمّي تولّت تربيتي باكرًا، وإعدادي لهذا الدور الهام. وكانت تعرف أنّ اللغة الأجنبية هي السائدة في البلاط. لهذا أوصيت بإحراق قصائدي لأحرق معها خجلي وخيبتي.

تســألين: «والســلطة؟ والعظمــة؟» نعــم، كان باســتطاعتي اســتغلالهما للارتداد، والانقلاب على كلّ ما نغّص عيشي. كان ذلك ممكنًا، ويسجّل التاريخ أغرب قصّة: ابنة الشعب، ابنة العامّة، التي اختارها الملك لتكون رفيقة حكمه وعمره، تنقلب عليه!

بــدل التمرّد اخترتُ الخضوع، والانســياق مع التيّار. صرتُ قشّــة طافية على ســطح المياه، وقــد أوصلني المــوج إلى هذا الشاطئ، لأقف في صحرائي القفراء، أتلفّتُ إلى الماضي وأتذكّر،

وأتحسّـــر، وأحسّ بأنّني مررتُ في الحياة مثلَ نســـمة الهواء فوق رمال الصحراء.

وانتقضتْ محدّثتي فجأة:

– لكن لماذا أصبُّ هذه الاعترافات في سمعك؟ ماذا تُجديك قراءة شـــعر كان رضدًا لخطوات لم تنتقل فوق أرض الواقع، بل كانت محاولات يائسة لملامسة النجوم؟

قلتُ لك كتبت عن البحر، ولم أحدّثك عن «الموجة التاسعة».

لقد علّمتنـــي خبرتي وتأمُّلي حَركَة الموج، أن موَاكِبها تتدافع على الشـــاطئ. وترتفع تدريجيًا، الواحدة تلو الأخرى، حتّى تبلغ الرقم التاسع، وتكون الموجة الأخيرة في فورة الحماسة. وبعدها تنفرج المياه، وتستقيم الصفحة الزرقاء، ويتنفّس البحر ريثما تولد فوق سطحه دفعة جديدة.

تَأمُّـــلُ الموج علّمني الكثير، لكن رطوبة البحر تغلغلت داخل رئتيّ، فمرضت ونحل جســـمي، وراحوا يســـتدعون لي الأطباء، أشهر أطباء المملكة. كانوا يكرّون الواحد تلْوَ الآخر، حتّى وصل الخبر إلى «رضوان». أطلّ بعد تقلّب كل أنواع الموجِ، واســـتكانة صفحة الماء.

ما كدْتُ أُبْصرُهُ حتّى دَفنتُ رأسي تحت اللحاف، وطلبت منه أن يغادر الغرفة.

لا يهمّ إن كشف الكون بأسره ضعفي وعجزي، أمّا هو...

وددت أن أبقى في نظره وحده المتمرّدة القويّة.

وسَمِعْتُني أصرخ بأعلى صوتيك «لا. لستُ مريضة. اخرج من هنا»...

اقتربَ منّي بهدوءٍ وبثقة. مَدَّ يَده ليجسّ نبضي ثمّ هَمَسَ:

– أنت وأنا، وحدنا، نعرف اسم هذا المرض. ولن نقوى على البوح بالسرّ.

لم أُجِبْ. ولم أرفعْ إليه نظري. عادت يداه تُطبقان على يدي:

– أنتِ اخترت حياتك، بملء الحرّية، فَلِمَ الشكوى؟

وانتفضتُ: «لم أرسل أحدًا في طلبك. اتركني وانصرف»...

– المرض لن ينقذَك. هناك سبيل واحد للخلاص. إمّا أن تذعني نهائيًّا وتستسلمي، أو تخرجي من هذه الدائرة المفرغة... عليك أن تحسني الاختيار، وفي كلا الحالين لن أتخلّى عنك.

أفرغَ كلامه ووقف يتأمّلني بصمت، من دون تأثّر أو انفعال. وفكرت» «إنّها محاولة انتقام. أنه يسترد حقه، ويعوّض نفسه من كلّ ما سبّبتُ له من ألم».

وعدت فتراجعت عن هذه الفكرة حين لم أبصر في عينيه أثرًا للحقد أو النقمة. كان يتأمّل، ويفكّر، وربّما حسب حساب المستقبل. وبعد لحظات حمل حقيبته وخرج من الغرفة وهو يردّد: «إنّي عائد غدًا»...

واســتراح البحر. ارتقت الموجة التاســعة الصفحة العليا ثمّ انفرشت، بصمت وهدوء.

جلستُ في سريري وأخذتُ القلم ورحتُ أَكتب. ولم أنم تلك الليلــة. كتبتُ حتّى مطلع الفجر. كتبــتُ بلا وعي. وفي الصباح، حين قرأتُ ما كتبتُ، انتابني رعب شديد، فهرعتُ أخبّئ الأوراق، وأنا أحسُّ تيّارًا جديدًا يهبّ على حياتي، فيجرف في سبيله المرض والإعياء، وينعشني، ويمنحني الأمل، والقلق والحيرة.

ماذا لو عاد رضوان؟

ماذا يكون من أمر الغد؟

وأطلَّ كما وعد. ولاحظ تحسُّن حالي فابتسم بخبثٍ:

– أعتقد أنّ وصفة الأمس كانت مفيدة. سوف نتابع العلاج.

وتألّقتْ في عينيه شيطنة أعرفها جيّدًا. خبرتها أيّام الولدنة، في جلساتنا المختلسة تحت أشجار الليمون في بستان والدي.

أحيانًا تســطع الحقيقة أمام أبصارنا فــي لحظة. وقد نقضي العمر كلّه نبحث عنها بجدّ ودأب، ولا جدوى...

وكانت الحقيقة واضحة مثل شعاع الشمس المتسلّل من خلف ســتائر حجرتي. وكانت تتألّق في عينيه، وتدعوني لأتبعها، وتلحّ بالدعوة. وظلَّ هو صامتًا.

جلس فوق الكرسي يتأمّلني ولا ينبس بحرف. ولم أَدْرِ كيف استيقظتْ جرأتي وشجاعتي وإصرار نظراتي.

كان يتنازعني الشعور بالواجب تجاه ارتباطي، وحياتي الزوجية، ويرتفع من الجهة الأخرى نداء القلب. نداء الماضي الذي عاد يطرق باب وجودي، وكأنّه آتٍ من خلف عوالم مسحورة، يشدّني إليه، يهزّ كياني، يحيّرني.

عُدْت أطلب منه أن يتركني وينصرف. رجوتُ منه ألّا يأتي ليعودَني مرّة أخرى لأنّي شفيت.

شرحت له خطر المغامرة على حياتنا كلينا.

لكنّه ظلّ صامتًا.

وقف كتمثال نُحتَ من حجر الصوّان. عيناه وحدهما كانتا تتحرّكان، وتشيران صوب الغد.

وصمتت شهرزاد.

وسرَتْ رعدة الخوف في مفاصلي. كنت مشدودة إليها، مسحورة بوقع كلماتها، معلّقة فوق حبل خفّاق، خائفة من هبوب نسمة ريح تقطع حبل السرد. لذلك لم أستحثّها على الكلام. وغرقت في الصمت علّني أستفزّها.

وطال صمتنا. وفرغت الغرفة من سحب الدخان ونكهة القهوة الصباحية.

وبقيتْ عيناي ترصدان الإشارات الطافية فوق صفحة وجهها بانتظار التحرّك التالي. ولمحتُ طيفَ ابتسامة، ثمّ انتقلتِ الابتسامة إلى العينين، واستقرتْ عليّ:

– من حَقِّكِ أن تعرفي نهاية القصة، ما دُمتُ قد أشرَكتكِ في بدئِهـا. لا حاجة بي إلى أن أشـرح لك من يكـون رضوان. ماذا يعنـي لي، منذ أيّام الطفولة، والمراهقـة. لكنّي تجاوزته، وقفزت إلى الضفّة الأخرى.

كنتُ صغيرة، محدودة الخبرة، وأقنعوني.

أحاطوا بي مـن كلّ صوب، وأقنعوني بأنّ الحبّ يذوي، ولا يدوم، وحُبُّ المراهقـة على الأخصّ. ألبسـوني أثوابًا برّاقة من الإغراء والوعود... وكنت طموحة، ولم أسـأل عن رضوان. وهو تابع دراسـته ليتحدّاني. وتفوّق حتّى بات أشـهر أطبّاء المملكة. لولا حكايتنـا لما اختار طريق الصعود، والتحـدّي المتواصل... لولا حكايتنا الفاشلة!

وها هو يعـود إليَّ، مجهّزًا بكلّ الحواسّ اللاقطة للانفعالات البشـرية، وتموّجات العاطفة والفكر. وأشـعرُ أمامـه بأنّي عارية تمامًا، وروحي ترتعش فوق يديه، وأحسّ بعينيه تنفذان إلى أعمق نقطة في ذاتي، ولا أقوى على ردّهما.

ويَتصـدَّى العنفوان، يدفعنـي إلى التغلّب عليـه من جديد، وانتشال نفسي من هاوية الضعف والسقوط.

وتعود إليَّ نصائـح الأهل والمقرّبين. تعـود تُدثّرني وتُدفِّئ كتفيّ:

«الحب يذوي ويذوب».

كذبوا، الحبّ يبقى. ونحن نقتله.

أنا بيدي سأخنقه وأتحرّر.

قَذفتُ الغطاء عنّي ونهضت، واقتربتُ منه بغلالة النوم الشفّافة، بوجهي المتحدّي، بكلّ الصور التي عاشت في مخيّلتي سنوات الضياع وصرخت في وجهه: «خذني بين ذراعيك. ضمّني إليك. اتّحدْ بي. أجبني الآن أو اخرج من حياتي إلى الأبد. إلى الأبد، هل سمعت؟»...

كيف لم تهرب شجاعتي! كيف تغلّبتُ على خوفي وخجلي، ووقفت أمامَ الرجل أعرضُ نفسي عليه؟

حتّى الآن لا أجد الجواب. كانت قوّة شيطانيّة تحرّكني وتُؤجّجُ البركان في صدري. وكان هو أقرب ينبوع أمدّ يدي إليه، وأغرف، وأطفئ الحريق.

وبدل أن يستجيبَ للدعوة، راح يتراجع إلى الوراء مذعورًا، مشدوهًا. وبقيت عيناه مسلّطتين على وجهي، تقرآن فوقه الرموز، تحاولان فهم ما يجري. وعقلتِ المفاجأة لسانه، فلم ينبس بحرف.

حمل حقيبته وخرج بهدوء، وأغلق الباب خلفه.

وعدتُ أنا إلى سريري، محمولة على أمواج الصقيع والخدر.

وفي اليوم التالي نفضتُ عنّي المرض، ورفعت علَم التحدّي، وتابعتُ الطريق متدثّرة بوصيّة الأهل وتساؤل الجارات والأقارب: «الحبّ؟ أيّة أسطورة هو!؟»

ومدّت الملكــة يَدَها، وقذفتِ الأوراق أمامــه، فتبعثرتْ في كلّ اتّجاه. وراحتْ تقهقه، ودَوَّتْ قهقهتها في جوّ القاعة محطِّمة حواجز الصمت والهدوء:

– تريدين خاتمة الحكاية؟ ها هي بين يديك. إقرإيها...

1972

الإنْتظار

عيناكِ وحدهما تسافران!

تخترقان مسافاتِ العصور، تثقبان الجدران وتعبران باحثتين عن النور.

والخطّ اللولبيّ يحملكِ بعيدًا بعيدًا... وأنتِ تتلهَّفين إلى متابعة الرّحلة، إلى المغامرة في أرجاء تلك الدنيا المجهولة.

تعرفين أنّه، في مكان ما، خلف تلك الدوائر والتلال المظلمة والطرق الملتوية، تتفجّر نقطة واضحة، هي الحقيقة. هي ما كنتِ. أنتِ، تبحثين عنه عَبرَ الولادات الكثيرة التي وُلِدْتها.

وها عيناكِ المطبقتان تخترقان الظلماتِ، فتشتعل فيهما اللهفة إلى الوصول.

وحسبتِ أنّكِ وصلتِ، وأنّ هذا الامتداد الشّاسع هو مدينتكِ... ورحت تمرّين في الشّوارع وتقفين أمام أبواب الحوانيت وتُصغين إلى ألوف الأنغام والأصداء، وتمسحين المارّة بنظرات مستطلعة: «أين هي؟!»...

ومرّ أمامك، برأســه الأبيّ وقامته الأنيقة، فوقف لحظة ليلقي السّــلام، وقبل أن تفتحي فمكِ لتســأليه عن الطريق تركتكِ وتابع سيره... وظلّت نظراتك ترافقه حتّى غيّبه المنعطف.

***

– منذ عشرات السنين وأنا أنتظركَ. ولم أصدّق أنّكَ تكوّنتَ أمام عينيّ. قلتُ أحوّلكَ إلى شــجرةٍ أَستظلّ بها، إلى ينبوع ماء أطفئ به ظمأي.

قلتُ: أســتريحُ في فيء خيالكَ، أَســتَنِد إلى زندِكَ... فعبرتَ وخلّفتَني فوق الرّصيف.

رَفَّ عصفورٌ فوق شــجرة أكاسيا. غريب، كيف نسي سربه؟! كيف عاش من الربيع الماضي وبقي في هذه المدينة اللاهثة الغبار والبخار والسّــأم، وظلَّ يغنّي ويزقزق ويطــرب الآذان، ولم يَنْسَ اللحن القديم، مع أنّنا نحن نسينا كلَّ ألحان «الميجانا» و«العتابا»؟!

هجمت رعودُ القنابل، راح دويُّها يمسحُ الذبذبات العالقة في جوائنا... وتلت ذلك صرخات اليتامى والأرامل، وتصاعد العويل يملأ الجوّ ويفرش السَّاحات.

«للثعالب أوجار وللطيور أوكار، وأمّا ابن الإنســان فليس له مكان يسند إليه رأسه».

وهذا العام لم يبقَ هناك عشٌّ لعصفور. وغلغلت حيوانات البرِّ في أعمق أعماق الأرض، ثمّ سـدَّت خلفها الأبواب المؤدّية إلى مصدر النور. ولمّا شقّت زهرة «بخور مريم» أديمَ التراب وشاءت أن تقول لنا: «سنة مباركة»، كانت قنابل «النابالم» لها بالمرصاد... هبطت عليهـا فأحرقتها مع كلّ الجيران والأقـارب و«الطّروش» وتحوّلـت نضارة الربيع إلى حرائق، وصـار الينبوع بركانًا يقذف الحمم...

***

– ما زلتُ أبحث عنكَ.

لا تقل لي إنّ الديّار انهدمت وتلاشـتِ الذكّريات، وتحوَّلتِ الطفولة إلى عدم. ما زلت أبحث عنكَ.

استعرت من «أبونا الياس» «طوَّاشة»[1] وعبّأتُ سراجي بالزيت، وأشـعلتُ الفتيل، ثمّ حملت النّور ورحت أطوف في ذلك الليل البهيم...

[1] قطعة معدن على شكل صليب مثقوب من الوسط، يوضع فيه فتيل ليشتعل في الزيت الحلو.

تسلّقتُ تلّة «السّكرة»[2]، واخترقتُ «الحِمى»[3]، وجرّح قدميَّ «البربيص»[4] المتساقط من أشجار السّنديان، وغرزتْ أشواك «القَنْدُول»[5] في سَاقيّ، وتركتُ دمائي تلوّن الحجارة ومشيت.

تدخّل الحرّاس ليوقفوني فتحوّلتُ إلى غمامة ورحتُ أمطرهم بالرذاذ البارد، وفتحوا أفواههم وشربوا وأطفأوا عطشهم، وخفَّتْ نيران حقدهم عليَّ... ولمّا وصلتُ، أنا الغمامة، إلى قمّة «حرمون»، رحت أرشّ الصّخور بالنّثر الأبيض الهفهاف، وتكوّمت الثّلوج فأصبحتْ عمامة نقيّة لشيخ الجبال.

ركعتُ أمامه وقلت:

– احترامي، يا شيخي الجليل!

فهزّ رأسه ولم ينبس بحرف.

وعدت أتكلّم:

– كمْ تقتُ إلى هذا اللّقاء! كم حلمت بالوصول إليك والمثول بين يديك! من زمان أوصتني جدّتي بأن أقوم بهذه الزيارة وأسمع منك حكاية القصر المسحور، و«قصر شبيب»[6]، قالتْ يومها إنّ الحكاية مكتوبة فوق صخرة، والصّخرة مرصودة، رصدتها جنيّات

---

[2] اسم محلة في قرية الكاتبة.

[3] اسم حرج يحيط بضيعة الكاتبة.

[4] ورق السنديان اليابس.

[5] نوع من النبات الشائك، له زهر أصفر طيب الشذى.

[6] قصر أثري قديم، مبني فوق جبل الشيخ.

اللّيل وليس هناك من يستطيع فكّ الرّصد ما لم تنفرج شفتاك وتبوحا بكلمة السّر...

عفوًا يا شيخي المحترم، هل أسأتُ إليك؟

أراك تعقدُ الحاجبين، وألمح العصا ترتعش بين يديك، والعمامة تكاد تقفز فوق رأسك الصلب الأبيّ لتصفعني، وأنا ما أسأت إليكَ ولا سعيْتُ لأذى مخلوق.

بلى، يمكن نسيت...

الآن أتذكّر نسياني... أرجأت الرّحلة سنين، استولى عليّ ذلك الخمول المغري واستسلمت للنوم...

ترَى، كنتُ أعيشُ في أعماق الوادي، واستيقظتُ ذات صباح ففركتُ عيني وتطلّعتُ صوب مصدر الشّمس، وكانت تلك البرتقالة المحترقة عالية ومستحيلة، وكنتَ تحجبها بطرف كتفك، وتمدّ عصاك أمامها وتدعونا إلى التسلّق.

يومها حسبنا الدّعوة مجرّد عبث طفوليّ، لعبة مسلّية... لم نُصْغِ إليك، ولا إلى أصوات الجدّات المنادية: «انهضوا وتسلّقوا السلالِم... هذه ليست عصا إنّها سلّم يرتقي إلى كبد الفضاء، وعليكم أن تجهدوا للوصول إلى أوّل درجة، وبعدها يشدّكم السلّم بقوّة لتبلغوا القِمَّة بلا عناء»...

أعترف بأنّنا خفنا.

يومها، اصطكّتْ ركبنا هلعًا.

قلنا للأصوات الهاتفة بنا من الغابات، من خلف الشّجر:

– وماذا لو انكسرتِ العصا السّلّم؟ وكيف نعود؟ أنموت بردًا ووحشة؟

– يا أولاد، لماذا العنـــاد! جرّبوا مرّة واحدة، وإذا لم تنجحوا أعيدوا الكـــرّة. تَدرّعوا واحدكم بذراع الآخر. تكاتفوا، تســـاندوا تصبحوا عند ذلك بغنى عن السلّم. تتحوّل سيقانكم إلى درجات للصعود. درجات ترتقيها أجيال الغد.

قلنا للأصوات الهاتفة من خلف الصخور والينابيع:

– نحن لم نَنْسَ ما حدث لشـــاهين، وقد كان أقوى منّا وأشدّ عزمًا. شـــاعر القرية، بطلهـــا المغوار، «شـــاهين»، كان يعيش في الحلـــم، ويتغذّى من رحيق الزّهور ويتعلّم في كتاب الطّبيعة كيف تحلّق النّسور وتسبح الحيتان... وأبصر بالعصا تتدلّى ذات صباح وتصل إلى عتبة داره، فامتطاها وسافر...

مثل لمح البرق، مثل قدح الشرر، سافر...

وقفنا يومها نودّعه ونتأمّله وهو يحلّق حتّى بات نقطةً زائغةً في سماء القرية، ثمّ تلاشى، وحتّى الآن لم يعد.

كثيرة هـــي الحكايات التي تُروى عنه، كيـــف أصبح عينًا في وجه الشّيخ، وخاتمًا في إصبعه.

العجائز يؤمنون بأنّه، في ليلة ما، سوف يطرق الباب ويدخل، تمامًا كأنّه عائد من الحقل، بعد يوم عملٍ مضنٍ، ليرتاح... ليتمدّد

فوق بلاس غُزلت خيوطه من شعر الماعز، لينام في العليّة. وحين يغفو يتسرّب شخيره عبر خروق الأبواب والنوافذ ويصبّ في آذان السكّان، يُطمئن الأصدقاء إلى عودته.

***

وها أنا أيها الشـــيخ بين يديك. تحوَّلتُ إلى غمامة لأصل إليك، لأنّ عصـــاك ضاعت فلم أعد أســـتطيع رؤيتها. غطّتهـــا الثلوج، كسرتها الأيدي الغريبة التي تسلّلت إليك في ليلة بلا قمر.

صرنا نرتقي إليك بواســـطة سبلٍ أُخرى، بواسطة الحلم ومتن السّحاب.

***

أبحثُ عنكَ.

في عيون الأطفال المحمرّة من السهر، من الجزع...

في جذور الشجر المكابر...

في انسياب الجداول...

في هسهسة الحشائش...

في زقزقة خجول لعصفور مهاجر...

أقول:

– لو وجدتكَ أحوّلك إلى شـــجرة وأغرسك في عتبة داري، وأســـقيكَ كلّ يوم، ويأتي أولاد الحيّ ويرقصون تحت أغصانك وتهرع إليك العصافير من لســـع ســـياط العواصـــف، من حروق الهجير.

أفجّركَ عند كتف البســـتان ينبوعًا من عســـل، أزرعك تينة أو كرمة أو شمسًا لا تغيب...

ولكنَّك أصررتَ على الرّحيل، عبرتَ الرّصيف كأنّنا لم نتلاقَ، ولم نتعارف ولم يكن بيننا ذلك العهد من المحبّة والوفاء...

وعبثًا حاولتُ أن أصرخ في أثرك، وألحق بك.

صرتَ نقطةً زائغةً عند آخر خطّ الأفق، وتلاشـــيتَ مثل قطرة نور في بحيرة ظلام...

***

عدتُ أحمل سراجي النّائص، وأتسلَّقُ السّلالم.

لم أتوقَّع منك أن تســـتقبلني بهذا العبوس، يا شيخي الكريم؛ وأنا حلمت طوال ســـنين بالوصول إليك، وســـمعت كلام الجدّة وحفظت الوصية. ولكنّني، كما قلت لك، ضيّعتُ الإشارة وتلاشتِ العصا فلم أعد أقوى على بلوغ الدّرجة الأولى في أسفل السلّم.

و«شـــاهين» لم يعد بعد ليدلّني على السبيل، والشمس كانت قوية، نورها بهرني وجمّدني في مكاني، ولمّا استيقظتُ من غفوتي هرعتُ إليكَ بما تبقّى في يديَّ من زيت وصلاة...

***

– عيناكِ تخترقان مسافاتِ العصور، تثقبان الجدران وترحلان...

وحدهما تستطيعان الصعُود والهبوط، والرّجل مشلولة والقدم جرّحها شـــوك الطّرقات... وتقفين فوق السّـــقيفة تحت شـــجرة الازدرخت المزهرة، تعبّين الشذى البنفسجيّ الناعم، وتصغين إلى «منجيرة» الرّاعي فوق صخور «القاطع» عبر النهر.

وتمرّ نســـائم الصّباح على وجهكِ، وتلفحكِ شمس الظهيرة، وتطنّ في أذنيكِ أسراب النّحل والفراش...

وتُطِلُّ جارتكِ العتيقة «أم نعمان»، وقد سرّحتْ شعرها وطيّبته بالزّيت، وارتدت ثـــوب الأحد الذي حمله زوجها من الغربة قبل عشرات السنين.

ثوبها الليلكي المكشـــكش يذكّـــرك بالأيّام الحلـــوة والزمن الراحل... ثوبها هذا يذري رماد الذكريات.

تلقي التحيّة وتمشـــي كمن يســـلّم على صخـــر، على عمود حديد... بصرُها مشـــدود إلـــى الأرض، موطئ القدمين. وتهمس أمّكِ في أذنك: «شحّ بصرها. نزلتْ على عينيها مياه زرقاء من كثرة

ما هلّتا من دمع... ليس هيّنًا أن يفقد المرء ابنه الوحيد... لم تعد تطرح أسئلتها أو تتحدّث إلى العصافير».

وتتابع أمّك:

– تذكرين كيف كانتْ في الماضي؟ كنّا نسميها علامة السؤال الدائمة المتّكئة على الشّباك! بوّابة الدخول إلى القرية والخروج منها، فقدتْ عصاها وانطفأ سراجها وحلّ عليها الظّلام...»

***

قالوا: «نعمان لحق بشاهين وصار مثله أسطورة تُروى... صار إشارة فوق طريق... كان يمكنه أن يتلافى ما حدث لو بقي داخل البيت، فلم يستيقظ ويقفز من سريره الدافئ؛ لو لم يمدّ رأسه من النافذة ويسأل الليل عمّا يحمل من مفاجآت»...

وفي تلك الليلة، سُمع في أرجاء القرية دويٌّ كالرعد، ثمّ تململ صوت استغاثة مرتعش، وتردّدت ذبذبات خفيفة في الدروب والساحات:

«عدوان على الشيخ».

ولم تلبث الذّبذبات أن تحوّلت إلى مطارق، إلى هدير يُرعد فرائص النيّام: «الشيخ يتعرّض للضرب، لدوْس الكرامة... خلعوا عمامته، مرّغوها في الوحل، غرزوا في جنبه الخناجر، طعنوه تسعين طعنة... قطعوا أطرافه وحملوها معهم للذكرى!»...

وبينما كانـــت الأمّهات تردّ الأبواب لتخبّـــئ خلفها الأطفال والرُّضع، شـــدّ نعمان منطقته وحمل السلاح، وخرج من دون أن يقول لأمّه: «وداعًا»!

ولعلع صوت أمّه في أثره:

– إلى أين؟ سوف يقتلونك، يا نعمان. يا نعمان...

ورجّـــع الليل دويَّ صرخاتها، بينما كان يغيّب أصداء الخطى المتباعدة في الظلام...

***

مثل خيال الطيور المهاجرة ينتقل ظلّكِ فوق الســـطوح، يتســـلّق التلال، يهيم بين السهول...

وعيناكِ تســـيران في الطليعة، تحرقهمـــا اللّهفة إلى الوصول، وتتوكّأين على عصا صادَفتِها في الطريق.

أبصرتِ قطيـــع الماعز مقيّلًا عند الينبوع، وفكرْتِ: «قد يكون بين الرعاة... أهبطُ عليه حلمًا في ساعات القيلولة، قطرة ندى تبلُّ ريقه، تُطفئ ظمأه، تمسح عرق جبينه...»

وما كدتِ تصلين حتّى تلاشتِ الصور والخيالات، واكتشفت أنّك تتفرّسين في لوحة رسمتها يد فنّان...

مكتبة
t.me/soramnqraa

تعيشـــين أبدًا مع الهواجس والأحـــلام، وتعذّبك الحقيقة... يشوقك الوصول إليها وتحول دون ذلك تلالٌ من العقبات.

***

وسمعنا نداءكَ في ذلك الليل البهيم.

النّاس الذين غُرِسَـــتْ في رؤوســـهم آذان وعيون، حيوانات البراري والغابات، أسماك البحار، والطيور الغافية فوق الشجر... كلّها سمعتْ صوتكَ، يا شيخي الجليل.

أعترفُ لكَ بأنّنا كنّا خائفين، ولم يكن السلّم منصوبًا بيننا.

تركناكَ في ذلك المساء معزولًا وحيدًا، وعصاك السحريّة لم تعد متدلّية جســرًا يصل بيننا... مدَدْتها وأســندْتَ هامتك فوقها، واسترحت.

أو هكذا أخبرنا الحرّاسُ في اليوم التّالي.

وبقيتَ وحدك تعاني جحيم النيـــران، وتتلقّى ضربات العدوّ بصمـــتٍ وصبرٍ عجيبيـــن... وحيـــن افتقدتَ أبنـــاءَكَ لم تجدهم حولك، والعصا التي صَقلتها وأعددتها لتعيدهم إليك وتجمعهم، هـــي التي راحتْ تفرّق بينهم وتذرّهم ليذوبوا مثل حبّات ملح في قاع المحيط...

ونعمان صار مثل شاهين. وبقِيتَ الأسطورة ترفرف في أجوائنا تتناقلها ألسنُ النّاس في جلسات السمر، وحول موائد الأنس والشّبع.

ولا تـــزال جماعةٌ منّا تُؤمنُ بأنّ شـــاهين يعيش في مكان ما، تحت أطراف عباءَتك أيّها الشيخ الجليل.

يقولون: «ربّما يغلُّ في قصر شـــبيب، بانتظار الفرصة المؤاتية ليقفز ويضرب ضربته القاضية»...

ويقولون: «نبتَ له جناحا نسر حمل فوقهما نعمان، حين غادر أمّه في ذلك الليل الرّهيب»...

ويقولون...

وتتساءل جماعة أخرى:

«إذا صـــحّ هذا، فلماذا لم يظهر الفارســـان؟ لماذا لم يخرجا لصدّ العدوان؟ لماذا لم يسمعا نداءك وهما أقرب إليك من أصابع يديك؟»

يتساءلون... ويقولون...

***

– ويداكِ تغزلان الصّوف.

أصابعكِ تعلَّمتْ هذا الفنّ ومَهرَتْ فيه.

وصرتِ تجمعين الصّوفَ العالقَ فوق أشواك الغابات، صوف الأغنام المهاجرة صوب الســـهول الدافئـــة، وتغزلين منها خيوطًا ملساء، تحرّكينها، في ما بعد، أحزمة وشالات.

ويداك لا تزالان تغزلان...

تؤمنيــن بأنّ البناء خيرٌ من الهدم، ولهذه الغاية أُعطينا المهارة وطواعية الأنامل... لهذه الغاية وُلدنا.

***

وحين انطلقَ ذلــك النداء الصّاعق لتبنوا ســلالم، أدراجًا لهيكل الصعود، تنصّلتُــم وأنكرتُمْ كلّ المهارات. صــار الجهل والغباء سيّدَي الساحة... صار العقم هو المهارة!

***

وفي الصّمت رحتُ أبحثُ عنكَ. هذه المرّة، فكّرتُ في أن أُخرسَ حولي كلَّ الأصــوات، أقفل النوافذ، أجمّــد الحركة في الخارج والداخل...

فكّرت: إذا خلقتُ جوًّا هادئًا، ربّما يُغريه ذلك فيدخل ليستريح من عناء الرحلة.

وانقضى النهار، وغربتْ شمسه، وطلع القمر من خلف التلّة. تســلَّلَتْ شــعاعاته من بين خروق العباءة، عباءة الشــيخ حارس البوّابة الشرقيّة، واندلعت أنوار النجوم، فرصّعت الفضاء.

«إذا ضيَّعَكَ النهار ربّما تبعثك الظلمة».

هكذا همستُ وأنا أطلّ برأسي من خلف النافذة أردُّ دفّتيها حتّى لا يتسلّل ضباب الليل إلى سريري... حتّى لا تغطّيني قطرات النّدى.

ثم همستُ من جديد:

«تركتُ الباب السرِّي مفتوحًا.

لم تسمَعْ ولم تأتِ.»

وعزفتِ الريحُ على نايات القصب، في بستاننا القريب، وأطرب اللحن بنات آوى، فراحتْ تسكر من عصير الدّوالي، وترقص بين الكروم والغابات...

قلت لنفسي، وأنا أهدهدها لتغفو:

«ربّما أقاموه حارسًا على الكروم، وهو لذلك لا يستطيع الحضور. كيف يتخلّى عن واجبه وبنات آوى تملأُ الأودية، وتنتشر تحت عباءة الليل الغامضة؟»...

***

الدويّ يفجِّر ذرّات الغبار فوق رؤوسنا، ويهزّ الأرض والفضاء:

«ها هو عائد إلينا»...

تردّدتْ صرخات الشباب وعيونُهم تبصر طائرًا جناحاه من نار، يمرّ فوق القرية يمزق الصمت ويزرع الترقّب والوجل:

«شاهين تحوّل إلى نسر، وها هو آت برفقة نعمان».

وارتفع الدويّ واشتدّ حين اقتربت الأجنحة من سطوح المباني، تكاد تلامسها، وبقيت العيون مشدودة إلى ألسنة اللهيب التي راحت تمطرنا بها السماء.

«ادخلوا المنازل، هذا ليس شـــاهين ولا هو نعمان. إنه غراب البين جاء ينعق في سمائنا... إلى المنازل... إلى الملاجئ».

ومرّة أخرى أفلت من أيدينا الحلم...

انزلق مثل قطرات الزئبـــق، وعدنا نعيش فوق بحيرة الانتظار الطويل، نفرك عيوننا لننفض عنها العمش، ونَمسح الدموع السود... وظلّتْ عيناكِ تسافران.

تعلميـــن أنّ الانتظار قد يطول، وأنّ العصـــا لا تزال محطّمة وسبيل الوصول مستحيل، ومع ذلك تُصِرّين... لأنّك عشتِ فوق راحتيه، في ظلّ عباءته، لأنّك خبرتِ عنادَه ومكابرته وصموده...

تخرَّقتِ العبـــاءة، أحرقتها قنابل «النابالـــم»، وتمزّق القماش الأبيـــض الذي يتوّج رأســـه ونزفـــت الدّماء من عنقـــه، من يديه ورجليه، من كلّ مغرز إبرة في جســـمه، وبقي منتصبًا مثل أشجار الصّنوبر، مثل السروِ العتيق...

دمعة من عينه لم تنسكب.

شعرة من رأسه لم تسقط.

وصوتـــه لا يزال متحفّظًـــا بتلك القدرة الهائلـــة على الدويّ والتحوّل إلى رعد يزلزل آثار الخوف والتردُّد.

وعنياكِ الراحلتان في الأبعاد، المنتظرتان عند بوّابة المستقبل، تخبران عنه ترتدّان إلينا لتسـردا حكاية النسّـرين الراقدين تحت أطراف عباءته بانتظار بزوغ الفجر...

حزيران 1973

القحْط

تنتظرُ مفاجأة.

تقفُ على عتبة السنين، على باب الأيّام المقبلة...

تتّكئُ على كتف سنديانة، تتمسّكُ بشالها الورديّ وعنياها زائغتان عند آفاق لا تُحدُّ.

يجب أن تقع المفاجأة.

تشتاقها شوق الأرض الظمأى إلى قطرات الغيث... وتعلم أنّها ستحدث، ستطلع لها من خلف باب، من ثنايا سحابة عابرة.

كلَّ يوم... كل يوم تقف أمام مرآتها، تصفّف شعرها الكستنائي، وتُجمِّل عينيها الواسعتين وتحلم، وتردّد كلمات شاعر قديم... تردِّدها للمرآة:

«في يوم لا تعلمين متى يحلّ، يأتي من خلف الغمام.

فارسك، فتى أحلامك، يُطلّ من فوق شظايا البرق».

وتوافقها المرأة وهي تقذف بها جميلة، أنيقة، لتعانق نهارها الجديد.

* * *

– كيف يبدأ الحبّ؟

تطرحُ السؤال على عتبة البيت وهي تشدّ حقيبتها الصغيرة إلى خصرها وتخطو إلى الشارع.

وتسمع الجواب همسًا آتيًا من المجهول:

«يبدأ حلمًا في الخيال».

«تكون الحسناء، الكستنائية الشعر مستلقية على أريكتها، تحت شـــجرة الكينا أو الأكاســـيا، وظلالُ الأغصان تتراقص في عينيها وفوق قوامها الممشـــوق، والعصافير تنشد لها ترانيمَها، واللهفاتُ تتخبّط بين جدران الصدر».

ويعود شاعرها يُرتِّلُ لها من بين ذرّاتِ الأثير:

«كلّي شوق إليكِ، اللقاء يحييني،

لكنّي أخاف أن يُنهيَ هذه النشـــوة التي تحملني إلى أبعد من حدودنا الأرضية»...

وتردّد خفقات قلبها:

«يا أيّها المجهول... تَجَسَّدْ، تعالَ واخطر بجواري.

اهبط من شرفتك العالية، وتأمَّلْ أرضَ البشر.

أرضي وسمائي، ومستقبلي.»

ويوقف النغَمَ نقرٌ خفيفٌ على باب الوعي:

«والحبُّ يبدأ كقدْحِ الشرر حين تصبّ العين في العين».

نفضتْ شعرها وقد عَلَتْ ثغرها ابتسامةٌ ساخرة:

«حبّ ماذا؟.. اجتزتْ مرحلة الخيال، وتركتها تُجرجر خلفي قدميها المرهقتين، وأنا امرأة ناضجة، ناضجة و... مُتعَبَة».

ولكن العيون لا تزال تجد في الوجه الجميل مادّة تُستساغ، فتحطّ فوقه كرفوف النحل. والشعر المسترسل ما زالَ يحفل بمداعبات النسائم، والقوام الأهيف الرشيق، وتلك المشية الراقصة... الراقصة!..

«هل مارستِ رقص الباليه؟»، سألها أحدهم ذات مرة.

فرحتْ بالسؤال، وتردّدتْ لحظات قبل أن تُجيب:

– رقصتُ للريح، على أنغام نايات القصب، وكانت أوراق الشجر تتكوَّم عند قدمي، أكداسًا من ذهب وزمرّد.

***

المسافةُ بين دارها ومكتبها لا تتعدَّى بضعة أمتار، تجتازها أربع مرات في اليوم. الشوارع مألوفة. وجدران المباني جدران بلا أبواب أو نوافذ.

من زمان لم تعد تبصر الأبواب، ووجوهُ الناس تكاد تكون نسخة واحدة لوجه يتكرّر رتيبًا متعبًا وخاملًا.

حتّى الأشجار الخضراء، على جانبي الطريق، فقدت رونقها وتألُّقها، وفوق أوراقها يتكدّس الغبار وبقايا دخان السيّارات.

كلّ يوم تجتاز المسافة ذاتها بخطوات بطيئة. تلاشى شوقها وأُفرغتْ من أصدائها اللهفة. وهي تمشي اليوم، وإلى جوارها تلهث أصداء همساته، وكأنّها فقاقيع تطفو فوق صفحة بئر منسيّ.

كان... يا ما كان!

ظنَّته حبًا ذلك الذي كان بينهما. سنة، سنتان... لا... يُقاس عُمرُ ذلك الحبّ بالسنوات، أو بالأيّام، بل باللحظات.

إندلع ثمّ انطفأ مثل الشهب. ورفضتْ أن تعترف بالواقع، هي المكابرة العنيدة... وعاشت على عنادها عشر سنين...

وهو، لم يكن غريبًا. رافقها منذ درجا في مرابع الطفولة، طفولتهما السعيدة، ثمّ سنوات المراهقة العذبة.

أوَيجوز أن تُسمّيَ ذلك حبًّا؟

يومها، ظَنَّتْهُ الحبّ، وراحت تَرفُّ في أجوائه كالفراشة اللعوب. نعم هي شجّعته، ولا تضع اللوم على أحد.

وحين دعاها والدها، مساءَ ذلك اليوم الربيعيّ الهادئ، ليسألها رأيها بـ«سامر النعمان» لم تُخفِضْ جفنيها خجلًا وحياء، ولم تُحاولْ أن تلفَّ حول الموضوع. واجهته بشجاعة وصراحة:

– نعم، أحبّه، يا أبي.

وهَبَّ الرجل الطيّب يقبّل جبينها، هي وحيدته المُدَلَّلة... وأصبحَ سامر صهرًا عزيزًا مُكرَّمًا.

***

ذاكرتها لم تُسجِّلْ من المواقف سوى هذا اللقاء الخاطف، ثمّ النظرة السعيدة في عيني سامر.

لو كانت تدري... لو كانت تجيد القراءة في دفتر المستقبل...

ويعود صوت جدّتها يتردّد مع هبوب النسائم: «قسمة ونصيب»...

وتتمتم في سرّها: «الله يرحمك يا ستّي».

رَفعتْ بصرها إلى الفضاء، وكأنّها تبحث عن روح المرأة الطيّبة، بين بواكير الغيوم الخريفية.

عشر سنوات! مدّة لا يُحسبُ لها حساب في تاريخ الأزمان. نقطة صغيرة في دفتر الأيّام، وتُحِسُّها اليوم طويلة كالأبد، ولا تنتهي مثل ليالي الألم والجوع. وتلك السنوات لم تتراكم بعيدًا عن وعيها. كانت تحاول كلّ لحظة أن تسترجع ما فقدته، وتغرس بين الدقائق واللحظات زهرات الفرح والحبّ. وظلّت أرضها قاحلة، وسماؤها لا تجود بالمطر.

تساءلت وهي تلج مكتبها:

– إلى متى يدوم هذا القحط؟.. لقد طالت فترة الصحو، وانتقل ظمأ الأرض إلى روحي.

كانت المحبّة التي تشدُّها إلى الأرض، إلى الطبيعة، خير غذاء وسلوى، تُغرق فيها همومها وتنتشر في مداها فتخفّ وطأة عزلتها القاسية.

منذ أن سافر تكوّمَتْ على نفسها حتّى لا تسمع أسئلة الناس عنه: «لماذا هجر وطنه، وهجرها؟ وهل سيعود؟ ومتى؟»...

أسئلة!

ماذا يعرف الآخرون عن تلك الأشياء الصغيرة التي تطفو على سطح العلائق الإنسانية ثمّ تكبر وتنمو حتّى تقضي على الجذور؟

ماذا يهمُّ الآخرين أن يعرفوا؟..

وهي لم يعد يعنيها التسـاؤل. رفعت بينها وبين الناس جدارًا عازلًا وارتمت في أحضان العمل، تصبّ فيه نشـاطها من الصباح حتّى المسـاء، حين تعود إلى دارتها الموحشـة، منهوكة القوى، لتتابع حياتها الشبيهة بحياة النبات، بلا حوار أو عاطفة أو طموح.

فكّرتْ في أنّ هذا التشبيه يظلم النبات، فبعضه بعيدُ الطموح، يُرسـل فروعه في كلّ صوب، ويتسلّق الجدران باحثًا عن الذرى العالية، عن مواطن الدفء والنور... وثمّة نبات لا يحيا بلا عاطفة أو حوار. وسمعت نفسها تردّد: «أقلّ من النبات أنا؟!»

وتململ صوتٌ آخر:

«لكنّك اخترتِ ذلك، وارتميتِ فـي أحضان الخدر. فَضَّلتِ الانطواء على رفع يدك إلى اليد التي امتدَّتْ تفتح لك نافذة جديدة على النور.»

ويردّ صوتها الأوّل:

«أنا خائفة... خائفة!»...

***

ألْقتْ نظرة على الطاولة أمامها فطالَعَتها أكداسُ الأوراق الجديدة والقديمة وقد تراكمت تُذكِّرها بحالتها. قفزتْ إلى النافذة تفتحها لتتنسّم الهواء، وتهرب من شعور الاختناق الذي لازمها في الآونة الأخيرة، فوقع بصرها على غصن شربين انحنى بغنج واتّكأ على الزجاج البارد.

خفق قَلبُها للمرّة الأولى منذ سنوات؛ النباتُ يُعانقُ الجماد... الأخضرُ الحيُّ يحاول أن يَبثَّ لُهاثهُ فوق اللوح البارد.

أحسّـــت أنّ غشـــاوةً ما انجلت عن وعيها المخدَّر، وعادت تدريجيًّـــا تبصر الواقع كما هو: إنّهـــا لا تختلف عن لوح الزجاج الجامد، وهذا الغصن يشـــبه اليد التي امتدّت تطلب يدها، تحاول أن تنتشلها من بحر الكآبة والوحدة.

كيف لم تبالِ؟ كيف لم تَشْـــعُرْ به، ولـــم ترتعشْ عيناها حين اخترقت عيناه مسافاتِ الظلمة راحلتين إليها؟

وظلَّتْ نظراته تنهمر على الصخر، وترتدُّ عاجزة عن الدخول... عن بلوغ مدينة القحط والجفاف.

تعـــرف تمامًا أنّه يختلف عن الآخريـــن. وَجههُ لا يندرج بين الوجوه المتشـــابهة التي تتكرّر يوميًا على شريط وعيها، يمكنه أن يكون تجسيدًا حيًّا لكلمات شاعرها القديم... «الفارس القادم من المجهول، ممتطيًا شظايا البرق».

لكنّ المعرفة لا تصنع العاطفة، ولا تخلق بذرة الحبّ.

وهي تعرف، كذلك، أنّ اسـمَها «نجوى»، وأنّ هذا الاسم لم يَعُـدْ يليق بها، وهـي تقف على عتبة الثلاثيـن، وتتطلّع أبعد من النافذة فلا تُبصر سـوى السحب الدكناء تغلّف سماءها، والأرض العطشى تمتدّ أمامها حتّى حدود الأفق...

والأرض تنتظر هطول المطر بشـوق ورغبة، ولكن متى طال الانتظار تموت البذور في قلب التراب... تحترق، ولا يعود يُحييها ماء الأرض والبحار.

تمنَّـت لو كان الغريب بقربهـا الآن، لتفتح معه هذا الحوار، وتشـرحَ كلّ شيء، وتقول له إنّها تلك الأرض، وهو الغمامة التي جاءت متأخّرة سنوات... وإنّ البذور، حين أعياها شوق الانتظار، استسلمت للنوم العميق.

1974

مِن أجل عَينيها

الأمواجُ تتدفَّق وتتدافع.

أمواجٌ بيضاء، تنعكس عليها أشعّة شمس ناعسة.

ترتفعُ الأمواج ثمّ تنبسط ويُسمعُ «فَقْشُها» عند أطراف شاطئ بعيد.

وهو يسبح بين ثنايا الموج. منذ ساعات يجذِّف، يحاول أن يشقّ طريقه وسطها ليصل إلى ملجأ أمين، إلى شاطئ دافئ يرتمي فوق رماله... يعانقها، يلتصق بها، يحتمي.

فجأة، يرتفع فوق سطح الماء الغامر شراعٌ أبيض، شراع وحيد، تتقاذفه الرياح، ثمّ تهبط حوله طيور النورس، آتِيَةٌ من جهة الغرب، ويَسمعُ «حمّاد» صرخاتها وهي تتقاتل، باحثة عن القوت.

كان البحر أزرق!

كان أيّام زمان!

لكنّ هذا البحر المنفرج أمامه بلا لون (الماء لا رائحة له، ولا طعم ولا لون...) عبارة لاصقة بذهنه من أيّام الدراسة...

تابع السباحة والتجذيف. يبدو له الشاطئ من بعيد، ويعلم أنّ عليه الوصـــول قبل طلوع الفجر. لكنّ الأمواج تزداد ثقلًا وترتفع فوقه بدلًا من أن تحمله.

كان البحر أزرق!

بَحْرهُ هر، البحر الأبيض المتوسّط. لماذا سمَّوه «أبيض» وهو الوحيد بين بحار العالم، ذو اللـــون الصافي، الغامق الزرقة، مثل عينيها؟

مثل عينيها أيّام الصفاء، في لحظات اللقاءات الســـريعة، أيّامَ كان يزورهـــا في دار أبيها، ويقفان تحـــت أغصان الدالية، يراقبان الغروب، ورحيل الطيور، وأوراق الشجر وهي تتحوّل من الأخضر لترتدي ألوان الخريف. وسمع هاتفًا، في داخله، يناجيها:

«قريبًا تَرَيننني يا حنان. فلا تشغلي بالك، وحافظي على صفاء اللون الأزرق.»

***

فَتَحَ عينيه بتثاقل، وأحسَّ أنّ أجفانه لاصقة ببعضها كأنّها مغرَّاة.

مُرهقٌ هو، لذلك غرق في نومه العميق.

مرهق من التجذيف في بحر بلا حدود.

أجال عينيه فـــي ما حوله، فانفتحتْ أمامهما ظلمة شاســـعة. تَحَسَّسَ جسده، ثيابهُ، وشعْرَ رأسه، كلّها جافّ، وهو ليس في بحر،

بل فوق تربة أرضه، جَسدهُ لاصق بها، يمتدّ فوقها بكلّ أحاسيسه، وهي تحمله وتجذبه إليها مثلَ ساعد أمّ حنون.

انْجلتِ الحقيقةُ أمامه. نَفرَتْ من قلب الظلام مثلَ شعاع نور سماويّ:

إنّه عائد من مَهَمَّةٍ ناجحة، وقد أُصيب في بعض الطريق.

وتساءل: أين يكون؟ والهدوء يبسطُ حوله جناحيه، والكون مستسلم للنوم، والنسائم الباردة تدغدغ وجهه وأطرافه...

وتذَكَّرَ رفيقه «زيّان». عادا معًا فأين يكون؟ تراه سبقه، أم استغرق مثله في نوم عميق؟

لا يجوز للفدائي أن ينام... فكيف نام هو؟..

يده تردّ الجواب، تغرفه من ينبوعٍ انفتح في جانبه الأيمن وراح يقذف السائل الحار.

غَرزَ سبابته في الثغرة فغاصت أبعد ممّا توقع.

إذن هذا هو السبب...

جرحُه نزف حتّى النوم.

و«زيّان»، هل أصيب مثله، أم ضاع أثره في هذا الليل الموحش؟ وسرت في باله خاطرة كرعشة البرد: تُراه...؟

أحسّ أجفانه تتجاذب من جديد لتنغلق، لتعود تهدهده في خدر استطابه. بذل جهده ليبقيها مفتوحة، وحاول أن يستقيم في جلسته فدارت به دنياه، وكاد يفقد وعيه.

راح يتلمَّس الدائرة المحيطة بجسده، فوقعت يده على صخر، زحف إليه، وأسند ظهره...

النزف قويّ، وهو لا يشـــعر بألم، وفي إمكانه أن يتابع سيره لولا هذا الدوار في رأسه. والثغرة في جانبه يجب أن تُردم.

اجتزَّ كُمَّ قميصه وحشا به الجرح فانقطع الهدير.

كان هديرَ جراحه، ذاك الذي حسبه في نومه صدى الأمواج، والآن غارت الدماء إلى الداخل.

تَرَدَّدَ قبل أن يتلمّس التربة تحته. لكنَّ يده ســبقتْ إرادته مرة أخرى، وراحتِ الأصابع تتحسّـــس التربةَ الرطبة، والسائلَ اللزج فوقها. نزفَ كثيرًا، من دون وعي منه، في صمت الليلِ ووحشـــة الوحدة، بعيدًا حتّى عن مراقبة النجوم.

لو كانـــت بقربه! لو كانت حنان لما تركتـــه هكذا في العراء، في برد الليل ووحشـــة الضياع. ولدافعت عنـــه... دافعت عنه... دافعت...

انفرجت شفتاه عن ابتسامة برغم ضعف الجسد وقلق الروح.

عاد يُبصرها حين هاجمت «أبو العزّ» قائدَ الفرقة، لتدافع عنه. وكانت تحمل في يمناها عصا غليظة.

فاجأه تصرّفها وكان من قبل يحسبها ملاكًا هابطًا من السماء. لكن، يبدو أنّ الملائكة أخذت تبدّل مواقعها في هذا العصر.

حتّى هذه اللحظة لا يصــدّق كيف تحوّلت «حنانه» إلى نمرة كادت تفترسُ الرجل القوي.

حاولَ أن يطرد ذكرى الحادثة من ذهنه، لكنّ وجهها عاد إليه بكلّ ما يحمل من عاطفة وحنوّ ومحبّة... عاد يستعطفه، وارتمت أجفانها فوق يديه تمســحان عنهما تَعَبَ الرحلة، وســمع صوتها متهاديًا حوله: «كم سيطول غيابك؟ لا... لا تجب. فقط تذكَّرْ أنّي بانتظارك».

***

الظُلمةُ كثيفة، ثقيلة، وعيناه تائهتان مثل فراشــتين زائغتين، كيفما اتّجهتا تصطدمان بجدار.

وفجأة أبصرها تخــرجُ من قلب الظلام وتمــدُّ يدها تتلمّس جبينه، وسمع شفتيه تتمتمان:

– لماذا تصرّفتِ هكذا يا حنان؟.. لماذا؟

– من أجلك... ألا تعلم؟..

– أبو العزّ قائدي، وهو قادر أن يطردني في لحظة.

– لكنّه تجرّأ عليكَ... خفتُ أن يضربك...

– أسأتِ الفهم يا زنبقتي الساذجة. كان مجرّد نقاش، ولساني ليس قصيرًا كما تعلمين.

– لكنه تدخل بيننا. اعترض على حبّنا.

– أعود فأقول لك: إنّه قائدي. وواجبي أن أطيعه.

– لكن هذا لا ينطبق علي!..

اختنق صوتهـــا، وأبصر قطرات بلّورية تنفر من عينيها وتكرج على خدّيها، ثمّ نكست رأسها وراحت تحدّق إلى الأرض، حتّى لا تواجهه بضعفها.

***

تلك اللحظات العذبة كيف ينساها؟ كيف يمحو من ذاكرته مشهد «أبو العز» وهو يتراجع وقد أخذته الدهشة.

(يا حنان، كم أنت طيّبة وساذجة. حافظي على براءتك وصفاء اللون الأزرق في العينين)...

***

كان عليـــه أن يعتذر لقائده عن تصرّفها الطفولي ويضاعف جهوده فيسلك ســـلوكًا يؤهّله القيام بالمَهَمَّة المنشودة. غاية انخراطه في سلك الفداء.

وأبو العزّ شابّ ذكيّ وطيّب، يعرفه معرفة حسنة ويقدّر اندفاعه وإخلاصه. هكذا قال له.

وأضاف أنّ ملاحقته لحمّاد كانت بدافع الحرص عليه. خاف أن يتراخى ويضعف أمام الحبّ فيتخلى عن القتال، ويخرج عن المعركة خائبًا.

(حسبتكَ تعرفني جيدًا يا أبا العز!...

بعد اليوم لن أحتاج إلى الشرح. ستدلّك عليَّ آثار هذا الجرح الفاغر فاه في خاصرتي).

وحنان، كيف يَذْكرها؟ كيف ينساها؟ وجهها يرافقه أنّى اتّجه، ولم يغب عنه طوال الرحلة.

كم تذكّر عنترة بن شداد! وكم ودّ تقبيل السيوف والقنابل وكلّ أنواع القذائف من أجل عينيها!

شعر فعلًا بأنّ روح عنترة تتقمّصه... ثمّ ماذا يمنعه من أن يكون عنترة فرقته؟

حبّ حنان يضاعف حماسته ويغريه.

أجل يغريه بالفداء، وبالكرّ والفرّ وإنكار الذات لتحيا.

***

انتهت مهمّته بنجاح. نسف مع زيّان مستودعًا لذخائر العدوّ الحربية. نجحا في إسكات بضعة آلاف رصاصة، وتعطيل مئات القنابل المحرقة، والقذائف ذات الشظايا السامة.

نجحا في إنقاذ أطفال وطنهما والنساء والصبايا الحلوات مثل حنان، والعجائز... أجل إنقاذ الناس العاجزين!..

أبوها كان رجلًا عاجزًا، لكنّه طيّب وفقيرا!..

سكّان القرية يعترفون بأنّ «سالم البيطار انجباري وطيّب». وفي يوم مرض. أصابته نوبة كادت تقضي على حياته ولم يكن هناك طبيب لا في القرية، ولا في الجوار. وذُعرت حنان، فاندفعت خارج المنزل تطلب النجدة، وكان هو أوّل من لبّى النداء.

صبيّة تستغيث به فكيف لا يستجيب؟... صبية مثل فجر ليلكيّ يتدفّق فوق ذرى حرمون...

رافَقَها من دون استئذان القيادة واستخدم خبرته ومهارته وأنقذ العجوز.

وأبو العز لم يعترض على ذلك. ولكن شفاء الأب كان واسطة لمرض حمّاد... وإصابتهُ كانت في مركز بالغ الحساسية، في حواشي القلب...

بالطبع، لم يستأذن القيادة ليتابع المسيرة. صار يغتنم كلّ لحظة فراغ ليداوي إصابته بشظايا لحاظها.

(يا أبا العز... ماذا تقول لك صبية جميلة في الثامنة عشرة من عمرها تعيش مستوحشة مع أب مريض، وبيت يفتقد عاطفة الأم؟.. وأنت شاب يقيم في العراء، ينام فوق التراب، وسادته

الصخر، وغطاؤه القلق؟.. وأنت إنسان يعيش على الأمل، وحبّ الأرض والتضحية بأغلى ما لديه في سبيل إنقاذها؟..

وأنت، الذي يتدفّق دم الشباب حارًا في عروقك، وينبض قلبك تلك النبضات القوية، فيكاد يخلع قفص الصدر... ماذا تفول لعينيها إذ ترحلان إليك، حاملتين اللون من أعماق البحار وأعالي السموات ووعودًا بأشهى الثمار؟..

ماذا تفعل وأنت إنسان ضعيف... ضعيف!...)

نعم، قلت لأبي العزّ: «ضعفتُ أمامها يا أخي، أعترف لك، من اللحظة الأولى ونحن جالسان حول فراش والدها وهي مستسلمة للوحدة والألم والحزن. وحيدة بلا حماية. قلت: ماذا يحدث لو مات الرجل، وبقيت هي وحدها؟ ماذا تفعل، وإلى أين تلجأ، وهي ليست مخطوبة وليس لها أخ أو أخت؟»..

هذه الأفكار كلّها جالت في ذهني حين كنّا جالسين صامتين، يُخْجِل واحِدَنا أن يرفع بصره عن الأرض؛ أنا، كي لا أعصي أوامر القيادة وأَستغلّ المناسبة، وهي حتّى تبقى محافظة على تقاليد مجتمعها. لكن، حين تكرّرت الجلسات، صار واحدنا أشدّ ثقة بالآخر، وتجرّأت هي ذات مرّة فرفعت إليّ عينيها وهي تودعني، وشكرتني والدموع تغرق بحرهما العميق، وتمتمت شفتاها: «صرتَ أعزَّ من أخ»...

قفلــتُ لأبي العز: «ماذا تنتظر من شــاب أن يفعل حيال هذا المشهد، سوى أن يغترفها بين ذراعيه ويقبّل الثغر والعينين ويُحسَّ الجسد الدافئ الطريّ ينبض بين راحتيه مستسلمًا هادئًا؟»...

نعم، إلــى هذا الحدّ وصلــتُ ثمّ انطلق الهاتــف البعيد في أعماقي: «تَذكَّرْ، أنت غريب. لستَ هنا لغاية الحبّ»...

وهربت.

بكثيــر من الجبن والضعف حرَّرتُها من ذراعي وخرجت، من دون أن ألتفت إلى الوراء.

لكن الإغراء كان أقوى منّي، وتغلّب البَشَــر فيّ على البَطَل، وصارت دارها الواحة النديّة وسط صحرائي المقفرة.

هكــذا اعترفت لأبي العزّ بكلّ شــيء. وأطرقَ طويلًا قبل أن يرفع إليّ عينيه وتُردّد شفتاه:

– غدًا تصدر أوامر بنقلك من هذه الفرقة.

انتفضتُ وقد مسَّني السلك المكهرب حتّى الأعماق:

– أرجوك. افعل بي ما تشاء ولكن أبقني بقربها.

وردّ غاضبًا:

– إنسانٌ مثلك لا يصلح للمعركة.

– سوف أثبت العكس...

وأبقاني بعدما أخذ منّي وعدًا بعدم زيارتها.

وقبلتُ عذابي على مضضٍ... إلى أن ضعفتُ في ذلك اليوم وخرجتُ على النظام. وعلم أبو العزّ من الرفاق الذين تخلّفتُ عنهم، فتبعني إلى دارها، وحمي بيننا الجدال. وكانت هي تسمع ما يقال بصمتٍ. ثمّ رأيتها تقفز فجأة من مقعدها، وتغيب لحظات قبل أن تعود وفي يدها العصا:

– لا... لا أسمح لأحد بأن يتدخّل بيننا...

وإلى من توجّه كلامها؟

إلى قائدي...

قفزتُ أهدّئها، وأنا أرسم ابتسامة مصطنعة أحطِّم بها الجليد في عيني أبي العز. لكن تصرّفها كلّفني ثمنًا باهظًا.

علمتُ في تلك اللحظة أنّي منقول وأنه سيمرُّ وقت طويل قبل أن ألتقيها. لكن غيابي سيكون من أجلها، من أجل عينيها، فأعود بطلًا تفخر به.

وخرجنا صامتيْن. أنا في المقدّمة، محنيّ الرأس كالتلميذ المذنب وأبو العزّ في أثريّ. وكان أوّل ما فاه به لدى وصولنا:

– ترحل في الغد الباكر لتلحق بالفرقة «س» وسوف أُزوِّدكَ بشهادة حسنة لأنّك من خيرة العناصر لدينا... لكنّي عجزتُ عن مداواة ضعفك.

وهمس في أذني فيما بعد، وهو يودّعني على باب الخيمة:

– كلّنا بشر. لا تخجل بضعفك. لكنّ النظام يأتي أوّلًا.
سقى الله أيّامك، يا أبا العز...

***

لملم ابتسامته من فوق الشفتين وتقاطيع الوجه، وعاد يتحسّس الثغرة في جانبه. وحاول أن يتذكّر أين انطلق الرصاص في أثرهما؟..

كان قد اجتاز مع زيّان منطقة الحراسة حين تهادت إليهما أصداء الانفجارات، وراحا يعدّانها حتّى ضاع الرقم، وتقاربت الأصداء مثل طرقات قلب ملهوف...

لا يذكرُ ماذا جرى من بعد. كانت أصداءُ الانفجاراتِ تملأُ أذنيه فلم يسمع دويّ الرصاص حوله، وحَسبهُ امتدادًا لذلك الصدى المتباعد.

وها هو يستيقظ وسط هذه الظلمة الحالكة، ويعجز عن النهوض. بل يجب أن ينهض... بأيّ ثمن ومهما كلّفه ذلك من ألم...

ينهض ويتابع المسير، أو يجتاز المسافة زحفًا ليصل قبل أن يطلع الفجر وترصده عين العدو.

وماذا عن زيّان؟..

يَتركهُ وحده؟ وكيف السبيل للعثور عليه؟..

أرْهفَ السمع عَلَّه يلتقط صدى لأقدام تسير أو جسد يزحف أو رئة تبثّ أنفاسها في العراء...

كانت السكينةُ تُجلِّلُ المكان، والهدوء يرخي جناحيه فوق الوجود.

وتساءل: «في أيّ ساعات الليل هو؟»

وحاول أن يَستلَّ الجواب من ساعة يد... لكن هذه توقّفت ولم يبقَ من دليل سوى مؤشّر البوصلة. تبعه زحفًا ويده تسدُّ الثغرة في جانبه.

ما هي المسافة التي تفصله عن رجال فرقته؟ وأين الحدود؟

سؤال كهذا يمكن أنْ يُطرَحَ من بُعْدِ آلاف السنين.

أين هي فرقته؟

وهل يستطيع الوصول؟

الأسئلة تتراكم فوق رأسه تزيده دُوارًا وطنينًا.

فكَّرَ في أنّ أفضل ما يفعله الآن هو أن يكفَّ عن طرح الأسئلة ويتابعَ التَحرُّكَ حتّى مطلع الفجر، ليبتعد ما أمكنه عن منطقة العدوّ. لا يجوز أن يقبضوا عليه حيًّا أو ميتًا، خصوصًا ميتًا... حتّى لا يمثلوا بجثّته كما فعلوا برفاقه قبل أسبوع.

سوف يزحف ليستقبلَ الفجر في منطقة آمنة خارج الحدود المعادية. هذا حلم لحظته وهدفه القريب، وَجدَه وارتاح، تمامًا مثلما ارتاح حين قرَّرَ الانضمام إلى فرقة الفداء.

كان في السنة الثالثة في كلّية الطب حين استيقظ على نداء الأرض، وهاتف يدعوه باسمه:

– ماذا تفعل هنا يا حمّاد؟ الأطباءُ والعلماء يملأون الأرض، ولا واحد منهم استطاع أن ينقذَ شعبك من بؤسه ويمزّق خيام الذلّ.

تَحرّكَت نخوته، وغلى الدم في عروقه فخلع الثوب الأبيض عن كتفيه وارتدى ثياب الميدان «الكاكيّة» وحمل البندقية.

عارضت أمّه، وتدخّل أساتذته، وصمت أبوه...

وغادر المنزل من دون كلمة وداع.

وها هو عائد إليهم... إليها... زحفًا على جانب واحد... الجانب الذي وَفرهُ رصاصُ العدو...

***

(تعودُ إلى أين يا حمّاد؟ بينك وبين طلوع الفجر زمن لا تستطيع تحديدهُ، وجسدُك واهٍ لا يقوى على حملك وهذه الأرض أرضك. هي الحبيبة التي عانقتها وأنت لا تدري. قبّلتَ ثغرَها واغتسلتَ بدموع عينيها وغمركَ طيبُ أنفاسها... ها هو العطرُ يغرز في مسام بدنك، يتمشّى مع الدم في عروقك، يطلب المزيد من الحب والعطاء.

إسمعْ صوتها يا حمّاد يهمس في أذنيك: «تعال أيّها الحبيب، اقتــرب أكثر فأكثر... التصق بي، مَدِّدْ جســدك في عروقي واتَّحدْ بي... اتَّحد بي... اتَّحد بي»...)

فتح حمّاد عينيــه من جديد، فأبصر الظلمــة تنقلب إلى نور يخطــف الأبصار، والأرض والجبال تحوّلــت إلى غمامة بيضاء، خفيفة مرحة، هبطت تدغدغ جبينه، تتلمّس رموش عينيه وشفتيه.

أحسَّ بنشوةٍ لم يذق طعمها من قبل.

إنه يتمدّد قرب الحبيبة...

جســده يلتحم بجســدها وهو مستســلم للنوم كطفلٍ أسكرهُ حليب أمه.

(اقتربي يا حنان... اقتربي لأَضمكِ إليّ. حنان، ما أصعب الفراق! الفراق وحشة وقلق ولقاؤك يعيد الروح إلى جسدي المضني.)

***

حين طلع الفجر، كان جســده يتمدّد فــي العراء عند منحدر قلّما داســته قدم من قبل. وجهه إلى الأرض، وأطرافه مفروشة، كأنّها تحاول احتضــان الكون.. وكان الجرح فــي جانبه الأيمن ينزف بهدوء، فتكرّ الدماء مزغردة بما يشبه الفرح، ثمّ تتغلغل في الأعماق لتزوي ظمأ الأرض.

1974

كسْرة خُبز

كان عليَّ أن أُبكر في النهوض لأستطيع اللحاق بطائرة الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، وأتابع رحلتي في أرجاء تلك القارة الجديدة الشاسعة التي أزورها للمرّة الأولى. لكن مضيفي أصرّ عليَّ لأبقى ساهرة معه حتّى بعدما انصرف الضيوف، وتجاوزنا انتصاف الليل بساعتين.

كنتُ مرهقة من السفر، من لقاءات الوجوه الجديدة، من القفز بين المدن الغريبة، مرهقة وناعسة، ولكن الرجاء الصامت في عينيه شلّ إرادتي، فجلستُ أصغي إليه يتذكّر أيّام الصبا في الوطن القديم، ويروي حكاياته المعتّقة. وكانت أعزّها على قلبه حكاية الأعجوبة التي حدثت له في مطلع الشباب:

«يجب أن تصغي إلى هذه»، قال ذلك، واستراح في جلسته قبل أن يتابع:

«أنتِ كاتبة تبحثين عن القصص في متاهات الخيال، وهذه واحدة واقعية، توفّر عليك عناء الابتكار، ثمّ...»

وهنـــا خفض صوته: «إنكِ الوحيدة، فـــي هذا البلد المتهافت خلف المادة، التي تستطيع أن تصدّقها».

ولم يكن محدّثي رجلًا خانعًا أو متخلّيًا عن عالم المادة، بل هو واحد من أولئك المغامرين الروّاد، الذين شـــقّوا عباب البحار إلى العالم الجديد، من أجل بناء عمارة تتّسع لطموحهم وأحلامهم الكبيرة.

وها هو أمامي الآن، رجل في العقد السابع، متين البنية، شديد العزيمة، قـــويّ الإرادة، لا تصدُّه العقبات ولا يخشـــى الصعاب. وإنّك لتستطيع، من الوهلة الأولى، أن تدرك أنّه مقلوع من صخور جبلنا الجردي أو مَشْتول من أحراج السنديان المكابر عند سفوح حرمون.

كذلـــك لم يعش محدّثي غريبًا عن العالم الذي تبنّاه، ويفضّل كدَّه وســـهر الليالي أنشأ مؤسّسة تجارية، أشبعت طموحه للعمل، وبقيت عاجزة عن ترميم تلك الثغرة التي انفتحت أمام عيني، حين بدأت القصّة تتدحرج فوق شفتيه.

وعدتُ معـــه إلى أجواء «جورة الســـنديان» قريتنـــا الصغيرة المهجـــورة، وعاد يقف بيننا طيف امـــرأة أحببناها كثيرًا، وفارقت دنيانـــا قبل أعوام، بعدمـــا عمّرت قرنًا من الزمن، وتلاشـــت كما تتلاشى ذرات النور في الفضاء. كانت أمّه وجدّتي.

قال الرجل القويّ: «كم تبـدو الأيّام قريبة يا عزيزتي! وكأنّما زيارتك محت ما يقارب السـتين عامًا من عمري، وأعادتني إلى مطلع شـبابي... وشـبابي لم يكن سـعيدًا حتى أتلذّذ بتذكّره... ولكن...»

وهنا كرجت دمعتان من عيني ذلك الأسد الجبّار وتابع:

– اعذريني يا بنيتي... الشـباب، يبقى هو السعادة، وذكرياته أعطـر الذكريات، مهما قاسـينا فيه ومنه... وتبقـى أرض القرية الصغيـرة أطيـب أرض، حتّى لم لم تُنبتْ تربتها سـوى القُندُول والبـلّان... وتبقـى أرض قريتنا تنبت عجائب قلّمـا يفهمها هذا العالم المسْـكون بعويلِ الآلات... منـذ هاجرت، لم أجرؤُ على أن أروي حكايتي العجائبية لواحد من سـكّان هذه المدينة. هنا، كلّ إنسـان هو «توما» جديد، لا يُؤمن ما لم يضع إصبعه موضع المسامير... وأنتِ؟

فاجأني سـؤاله، فأجبتُ وقد تضاعَفَت حرارة شوقي لسماع المزيد:

– أنا لستُ من حزب «توما»، ولا أعتقد أنّ الوجود يتألّف من الأشياء المرئيَّة وحسب.

فابتسم بارتياح وتابع:

– كنت في الثامنة عشـرة مـن عمري حين اسـتُدعيتُ إلى الخدمة في الجيش العثماني. ولم أسـتطع أن أحتملَ قوّةَ العيش،

وظُلمَ الحكّام، فاغتنمتُ مع بعض الرفاق أوّل فرصة للخلاص من الكابوس الرهيب... ورحنا نجتاز البراري والقفار لنعود إلى أهلنا... قاسَيْنا من التشرّد والجوع والعطش. اهترأت أقدامنا حتّى كادت تلحق بنعال أحذيتنا، ولا أذكر كيف وصلتُ إلى البيت، لأنَّ الحُمَّى أنشبت مخالبها في ما تبقّى من جلدي وعظامي. وانطرحتُ في غيبوبة دامت أيّامًا، كان دوائي خلالها جرعاتُ ماءٍ تَسكبُها يدُ الأمّ الحنون بين شفتيَّ، مع صلواتها الحارّة، ودعائها لي بالشفاء. إيمانها كان دوائي الوحيد، وملجأي الأخير. كانت تقضي النهار والليل ساجدة أمام فراشي، تسكبُ دموعها، وتُصلّي وتتوسّط القديسين من أجل سفائي. وأنا راحل في غيبوبتي. لا أعي شيئًا ممّا يجري حولي... وفي إحدى الليالي، وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل، وكانت أمّي لا تزال ساهرة، تجسُّ نبضي، وتُحصي أنفاسي، سمعَتْ نقرًا خفيفًا على الباب. فانتفضتْ خشيةَ أن يكونَ الطارقُ مبعوثًا لاسترجاعي إلى الخدمة. ولم يكن حولها من تَستنجدُ به سوى إيمانها. استنفرتْ كلَّ طاقاتِها وحيويتها وفَتحتِ الباب، لتُفاجأ برجلٍ عجوز، لحيتهُ البيضاء تكاد تكنسُ الأرض. رجل غريب لم يسبق لها أن لمحت وجهه في القرية من قبل. ولم تدرِ إلى أيّ المشاعر تستجيب وهي تركّز نظراتها عليه. وقبل أن تسأله من يكون أَوْمأَ إليها لتسقيه جُرعة ماء. فهرعت إلى الداخل، وملأتْ كأس ماء ثمّ عادت تقدّمها إليه. شرب جرعتين

وأعـاد إليها الـكأس، فحملتها إلى مكانها مـن دون أن تتخلّص ممـا فضلَ فيها كيلا تجرح شـعور العجوز. وعـادتْ إلى الباب من جديد، فأبصرت الزائر الغريب يُومئُ إليها بمعنى أنّه جائع... «جائع؟»،... لهذا يبدو المسكين واهنَ القِوى، يكاد يَهوي أرضًا. حَملَتْ إليه كسرة خبز وحفنةً من حبات الزيتون الدسمة، فجلس على العتبة وراح يلتهم الطعام بنهم. وفي هذه المرَّة أشـارت إليه ليدخل ويسـتريح في بيتنا حتّى مطلـع الفجر، وقد اتّضح لها أنّه أحد المشرّدين الذين قذفت بهم الحرب في كلّ اتّجاه. فانفرجتْ أساريرُ وجهه، ونهض بلا اعتراض، وكأنّه كان ينتظر منها مثل هذه الدعوة.

كان في بيتنا فراش فائض دعتْهُ لينامَ فوقه، وقلبُها يَترجّح بين شتّى من المشاعر الغريبة.

نام الضيف، وتلاشى قلق الوالدة حين سمعتهُ يغطُّ في نومه، فعادت إلى مكانها قرب فراشـي، وعادت إلى السجود والصلاة. وربّما أغفت هي أيضًا، لسـت أدري، فأنا لم أكن واعيًا لشيء من تلك الأحداث التي روتها لي فيما بعد بدموعها وبسماتها. وروت لي أنّها استيقظتْ مع خيوط الفجر الأولى على ندائي الضعيف:

– أمي... يا أمي!

وكان صوتي قد انقطعَ عنها منذ أيّام.

اقتربتْ منّي حتى كادتْ تُلامس شفتي فَسَمعتْني أكرّر النداء:

– أنا عطشان. اسقيني الماء من الكأس.

تردّدتْ لحظات قبل أن تحمل فضلة الماء إليَّ، لكنّها خضعت لطلبي فلم تملأ الكأس بماء جديد. شربتُ الماء كلّه ثم فتحت عيني وكأنّي عائد من رحلة دهور.

بدت الغرفة لعيني مضاءة بنور عجيب، وكان النور آتيًا من الزاوية الشرقية. طلبتُ من الوالدة أن تسنُدَ رأسي، ثمّ سألها صوتي الضعيف:

– مَنْ يُنير المصباح هناك؟ وأومأتْ إلى حيث ينام الغريب. التفتَتْ إلى حيث أشرتُ وأجابتْ:

– ليست هناك أيّ مصباح يا حبيبي. إنه الفجر بدأ يُرسلُ خيوطه الأولى.

هززتُ رأسي نافيًا وأنا أكرر:

– ليس نور الفجر... ألا تَرَينه؟... إنّه نور أبيض يتغلغل في عينيَّ، يفتحهما ويشدُّني من يدي... يَشدّني... هاتي يدك!

وأعطتني يَدَها، فعصرتُها بكلّ ما لي من قوّة ثم رفعتها إلى شفتيَّ وقبّلتها.

غمرتني بذراعيها وهي تتمتم:

– الحمد لله... شُفِيتَ يا بنيّ. أعجوبةٌ حَلّتْ في بيتنا. لقد كان وجهُ الزائر الغريب طالعَ خير علينا.

«حمل الصباح نهارًا جديدًا إلى دارنا، كما حمل حياة جديدة إلى جسدي المُضْني. لكنّ الوالدة صرفت نهارها ذاك في الحيرة والقلق. لقد بحثتْ عن العجوز الذي آوته فلم تجد له أثرًا. كذلك لم يكن هناك ما يشيرُ إلى أنّهُ نام في بيتنا. سألت عنه سكّان القرية فلم يذكرْ أحدهم أنّه رأى مثل هذا الإنسان في القرية أو في الجوار.

وعندها لم يَبْقَ لديها أيٌّ شكٍ في أنّ المعجزة حلَّتْ فعلًا، وأنّ صَلاتَها استُجيبتْ، وأنّ الرجل ذا اللحية البيضاء لم يكن سوى أحد القديسين الذين توسَّطتهم لشفائي.

وأنا لم أَشُكَّ لحظةً في روايتها. إيمانُها العظيمُ كان خالقَ المعجزة».

***

صمتَ محدِّثي وهو يمسح دمعة ناعمة تدحرجتْ على خدّه، وحاولتُ أن أُخفي عنه تأثُّري...

كذلك لم أخبرهُ بأنَّ الجدَّة التي عاشتْ عمرَها بعد رحيله في حرقة الشوق والانتظار، ظلَّتْ، حتّى النفس الأخير، تفي نذْرها من أجله:

النذرَ الذي يذكِّرها بعطاءِ الحياة.

كانت تَخرجُ كلَّ يوم إلى الأزقّة والساحات لتبحث عن غريبِ
جائعٍ، تقدَّم إليه كسرة خبز

1975

وصارت الصخور فراشات

الصمْتُ والفراغ، وهذه الفجوةُ ملءَ الكون... ملءُ قلبي.

منذ رحل وأنا أحاول أن أَردمها، وأُهيلَ عَليها التراب. تعبت يداي. تعب القلب وجفَّ دمع العين.

حملتُ ريشتي وألواني وهربتُ إلى هذا الملجأ... إلى بيتنا الريفي الصغير.

قلت: هنا تكون الوحدة أرحمَ، بعيدًا عن صخَب المدينة ورنين «تليفون» يذكّرني، مع كلّ رعشة، بأنّي أمشي في الكون وحدي... بعده وحدي.

وجودُهُ الذي كان أشجار سرو وشربين، وجودُهُ الشاهق الممتدّ وسع الكون، غاب. ومعه رحلت طيور السنونو والأنغام العذبة والفرح.

رحل الربيع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

لملمتُ ألواني ولجـأت إلى ركن كان لنا يوم كنّا معًا. ومن حين وصولي وأنا أحاول أن أتذكّر الألوان التي بها كنت أرسم.

أتناول الأخضر وأَمزُجه بالأزرق فيأتي بلون الرماد.

أخلِط الأحمر بالأصفر فيعطيني لون الصدأ القاتم.

طَعْمُ الرماد تحت لساني. والصدأ يغلّف تجاويف القلب.

وأنـا أصارع وأتحـدّى، تمامًا مثلمـا كان يُوصيني حين كنّا نتقاسم اللحظات... لحظات الهناء.

والآن بقيَ الزمن فـوق راحتيّ. ظلّ لي وحدي ولا أدري ما أفعل به.

***

ومع ذلك سأظلُّ أرسم وأخال أن يده تمسك بيدي، وتقودها، وأنّ هذا الـدرب المظلم الذي أجتازُه لا بدّ من أن يوصلني إلى نافذة النور.

مَـرَّتْ أيّام ثلاثة، وأنا أحـاول أن أتذكّر كيف تكون الألوان، وأرى في الضفّة الأخـرى من الوجود... أراني في الماضي... آه كم تصعب الرؤية!

هنـاك خلف الضباب، تجلس امـرأة لا أعرف كيف أصفها، أحلوة هي؟ أجذّابة أنيقة؟ لستُ أدري!

أَعْلمُ فقط أنّها سـعيدة، وأنّ الكون لا يَتَّسِـع لفرحها، وهي على رغم تخطّيها العقد الثالث من العمر، تتمتّع بمرح الأطفال... تحبّ الأطفال وتمارس ألعابهم.

لم تُرْزَقْ طفلًا. مرّت سنوات على زواجها ولم تنجب. ولكنّها تستعيض به عنهم... طفلها الكبير هو. ومن أجله ترشق الكون بألوان قوس قزح:

أُبْصِرُها عند الضفّة الأخرى لوجودي، خلف ملاءة الضباب، ترسم الدمى وألعاب الأطفال. الدببة، والقطط والكلاب الصغيرة، والأرانب والعصافير. عصافير من كلّ الألوان والأشكال. ترسمها في شتّى الوجوه، كما ترسم صندوق الفرجة وبائع الحلوى؛ المعلّل، غزل البنات، السمسميّة والبندقيّة، الصور العالقة في البال من أيّام طفولتها الهانئة، ويمتلئُ بيتها بالألوان، بالدمى، بكلّ ما يحبّ الأطفال من مناظر...

وَيتساءلُ الأصدقاء وروّاد معارضها عن سرِّ اتّجاهها ذاك، ولماذا اختارتِ البقاء في عالم الطفولة؟

وتُعَلِّقُ نافذةٌ خبيثة:

– للتعويض.

فتردّ عليها أخرى:

– ولماذا لا تتبنّى طفلًا وتَحلُّ عُقدتها؟ الأرض مملوءة بالأطفال المحرومين.

وتهزُّ الأولى كتفيها وكأنّها تنفض عنهما مسؤولية الإجابة.

ثمّ تتلاشى الغمامة وتغوص الضفّة الأخرى إلى قاع الذاكرة، وأبقى وحدي. مظلّتي سـنديانة عتيقة، ومقعـدي صخرٌ دهريّ، والحقول تمتـدّ أمامي على مـدى النظر، تتمـوّج فيها الخضرة المزركشة بالألوان.

إنّه الربيع.

أوّلُ ربيـع يعود غَيرَ متأبّط ذراعه! أُسـرِّحُ بصري في الموج، فيرتد إليّ خائرًا منهوكًا، وتعجز الفرشاة عن ملامسة وجه الطبيعة.

أَلقيتُها جانبًا وتمدّدتُ على شـكل صليب، وأغمضت عينيّ. لا أدري كـم مضى من الوقت على إغفاءتـي، فقد تنبهّتُ فجأة، وكأنّ سـلكًا مكهربًا مَسّـني، وظلَّ الصمت مخيِّمًا. ولمّا فتحت عينيّ ذُهلت لِما رأيت. فأطبقتُ أجفاني ثمّ فتحتها لأتأكّد من أنّها تُطعيني، وأنّي لسـت في حلم. كانت تقف على بعد ثلاثة أمتار، وتحدّق إلـيَّ بصمتٍ، طفلةٌ، سـمراء اللون، لوزيّـةُ العينين، لا تتجاوزُ السـابعة من العمر، ترتدي ثوبًا مُهلهلًا يكاد لا يستر عُرْي جسمها الطري.

أولُ سـؤال تبادر إلى ذهني وأنا أُلمْلِمُ أطراف ثوبي وأستوي في جلسـتي: من أين جاءت هذه؟ وبيتي بعيد عن القرية، ومُسوَّر بحديقة تعزِله عن أيّة حركة في الخارج؟

ظلّت الطفلة واقفة أمامي تتأمّلني بصمت، وقد تجمّع كيانها كلُّه في عينيها. ثمّ لم تلبثْ أن اختفتْ وبقيتْ لي عيناها ونظرتهما الصعبةُ التفسير...

كانت تنتظر كلمة تشجيع لتتحرّك. ابتسمتُ لها فلم تردّ الابتسامة. وسمعتُني أسألها بالرغم منّي:

– من أنتِ؟

فلم تردّ.

فكّرتُ: ربما كانت صمّاء بكماء، فلأحاول الوصول إليها عن طريق الإشارة.

وارتدّت إشاراتي إليَّ مع شعور بالخيبة.

وقفتُ أتأمّلها وهي تغيب خلف الأشجار ثمّ تتّجه صوب الباب الخارجي للحديقة.

عُدتُ إلى فرشاتي وأنا أحاول أن أنتزعَ صورتها من ذهني. لماذا أشغل بالي بها؟ ربما كانت مع زمرة من الأطفال يقومون بنزهة في البساتين المجاورة. أو ربّما تاهتْ عن الطريق. وقد تكون ابنة فلّاح يعمل في حقل مجاور. من عادَةِ أطفال القرى أن يشاركوا والديهم العمل في الحقول... أو ربّما...

ونَفَضْتُ رأسي. لا أريد أن أفكّر فيها. عصفورةٌ مرّت فوق غصن شجرة. فراشة رفّت حولي وطارت.

تناولتُ الفرشـــاة لأنهي اللمســـات الأخيرة على لوحة بدأتها في ذلك الصبـــاح لمجموعة من الصخور الرماديـــة المنثورة في أرجاء الحديقة. لكن وجهَ الطفلة عاد يطل عليَّ من بين الشـــقوق الصخرية، ويرتـــدي مع كل طلّة لون زهرة ربيَّـــة. فهو ليلكي أو أحمر، أو وردي... والعينان أبدًا مفتوحتان بدهشة وذهول تحدّقان إلى عينيّ. ولمّا عدت في المساء إلى غرفتي، سبقني وجهُ الطفلة وراح يرتقي درجات الســـلّم، أو يتأمّلني فوق الشرفة. ولم أحاول أن أَتَخَلَّصَ منه حين انحنى على وسادتي وأنا أستسلم للنوم.

ولمّا اســـتيقظتُ في الصباح، كانتِ الطفلة أوَّل منْ خطر في ذهني، وتســـاءلتُ عَمَّا إذا كانت ستعود. ونما في نفسي شوقٌ إلى التعرُّف بها، وندمتُ على أنّي لم أطاردها وأجبرها على النطق. ثمّ رحتُ أبحث في أرجاء المنزل عن دمية أو أيّة حاجة تســـرّ طفلة فـــي مثل عمرها، وتجذبها إليَّ. ولم أجد تلك الدمية، فتســـلَّحْتُ ببعض الحلـــوى، وأخرجت واحدة من لوحاتي القديمة، تســـرح عليها فراشـــاتُ الربيع، وتتعانق فوقها تيجان الزهـــور البرّية، ثمّ اتّجهت إلى ركني المألوف بنشاطٍ لم أعهده في الأيّام السابقة، بل بشوق ورجاء وكأنّي على موعد مع الحبّ.

كانـــت الصخرةُ في مكانها. كذلك الأشـــجار وجدول الماء. ولاحظت أنّ لون الأرض المفروشـــة أمامي بالحشائش والأزهار

قد ازداد تألّقًا ونضارة. ووجدتني أتلفّت في كلّ أرجاء الحديقة، بحثًا عن الوجه الأسمر والعينين اللوزيتين.

ثمّ نسيت الطفلة وأنا أغرق في ألواني، وأرحل معها إلى الضفّة الأخرى المنسيّة. ولمّا عدت إلى ما حولي اكتشفت أنّ الصخور التي بدأتُ رسمَها تَحوَّلتْ فوق القماش إلى أرانب وفراشات ملوّنة.

رفعتُ رأسي لآخُذ نفسًا، ففوجئت بالصغيرة واقفةً أمامي، أقرب إليَّ ممّا كانت بالأمس. كاد رأسها الصغير يلتصق بي وهي تتطاول على رؤوس أصابعها لتتأمّل ما أفعل.

ابتسمتُ لها، وناولتُها اللوحة وأنا أُردِّد:

– خذيها. إنّها لك. رسمتها من أجلك. هل تحبّينها؟

ظلَّتْ عيناها تبحثان فوق شفتيّ عن الحقيقة، وكأنّها لم تصدق كلامي، فأعَدتُهُ ببساطة ولطف:

– صدقيني إنّها لَكِ. خذيها وعلّقيها فوق جدار غرفتك. ثمّ تناولتُ لوحة الزهور والفراشات وقدّمتها إليها وأنا أردِّد:

– وهذه أيضًا لك.

وهنا انفرجت شفتا الصغيرة وكأنّهما تودّان الكلام، ثمّ انضمّتا بصرامة، وبقي الانفراج بسمة هادئة في العينين، لكنّ الجسم الصغير لم يتحرّك.

حملتُ اللوحتين ووضعتهما بين يديها، فاحتضنتهما، وعيناها لا تصدِّقان، وابتعدَت بهما وهي تتلفّتُ إلى الوراء.

وتذكّرتُ كيس الحلوى، فتبعتها، وأنا أتمتم:

– نسيتُ أن أعطيك هذا. أحضرتهُ من أجلك.

خَطَفَت الكيس من يدي وتابعتْ جريها، وتركتني واقفة خلفها، مملوءة فرحًا وغبطة، غارقة في بحر من مشاعر هجرتني من زمان.

لملمتُ مشـــاعري وغبطتي ورحت أَصبّها فوق القماش ألوانًا وأشكالًا حلوة مرحة مثل أيّام زمان. وتحوّلتِ الأرضُ والصخور إلى حديقة حيوانات أليفة، طيبة.

عادت مســـرحًا للدببة الصغيرة، والكلاب والقطط والفَراش والأزهـــار والعصافير، وكلّ ما يمكن أن يجـــذب انتباه الأطفال، ويثير فرحهم. وما كان عليَّ ســـوى أن ألتقط المشـــاهد المنوّعة لذلك العالم العجائبي وأسجّلها بألوان تتناسب مع براءة الأطفال. وما كنت لأغادر مكاني لولا غروب الشمس وحلول الظلام.

حين رجعتُ إلـــى البيت، في ذلك النهار، كنت أســـير على أطراف أصابعي، أخطو بخفّة ورشـــاقة، بل أكاد أرقص مع تمايل الغصون، وأصفِّر ألحان الحساســـين، وأبعث إلى النجوم رسائلَ شوق وحنين.

ولـــم أحاول أن أتهرّب من الاعتراف بأنّ التحوُّل الذي جرى لـــي لم يكن فعلًا عجائبيًـــا غامضًا، بل بســـبب العينين اللوزيّتين

اللتين أشرقتا على وجودي مثل شمس إلهية، وتفجّرتا في حياتي كينبوعَي كوثر. وتساءلتُ بيني وبين نفسي عن وضع تلك الطفلة، ولم أندم لأنّي لم أتملّقها، فقد كنت واثقة بأنّها ستعود إليّ، وأنّ صداقة حميمة بدأت تنمو بيننا.

ولم تُخيِّبْ ظنّي.

في صباح اليوم التالي وجدتُها قرب الصخرة، وقد وضعتْ فوقها اللوحتين ووقفت تنتظر. ولمّا وصلت، أشارت إلى هديتي وقالت:

– أبي أرسلني لأعيدهما إليك.

ابتسمت لأشجّعها على الكلام، لكنّها توقّفت عند هذا الحدّ. وسمعتني أسألها:

– وأين هو أبوك؟ ولماذا أَعَدتِهما؟ لا أريد منك شيئًا. ألم تقولي له أنّهما هديّة؟

فعادت تتمتم:

– ولكن ليس لي غرفة أو جدار لأعلّقهما فوقه.

وسألتها أين تقيم، فحنت رأسها بخجلٍ وهي تردّد:

– مع أبي. في الورشة. أبي عمّار يبني بيتًا...

فاقترحتُ أن أُرافقها إلى مقرّ عمل أبيها لأتحدّث إليه. ولم تمانع. راحت تقفز أمامي كالأرنب. ثمّ قادتني إليه بين دهاليز بناء لم يكتمل.

قابلني الرجل بنظراتٍ لا تخلو من الشكّ، ولكن لهجتهُ لانت فيما بعد حين جلستُ أصغي إلى حكايته، وأرشف معه الشاي الأسود.

نعم، لا مكان للوحة فنّية في كوخ التنك، حيث يبيت مع رفاقه العمال، ريثما تفرغ الورشة من هذا البناء. وطفلته «منى» تنام معه، في حضنه.

وأمّها؟

هربتْ مع شاب أحبته. سئمتْ حياةَ الفقر والوحدة. هكذا قالت له ذات يوم. ولم يأخذ كلامها بعين الجدّ. ظنّ أنّها نوبة غضب وتزول. لكنّه بحث عنها في اليوم التالي فلم يجدها. تركت منى عند جارتها ورحلت. وكانت الطفلة في الثالثة من عمرها. منذ أربع سنوات وهي ترافقه. تنتقل مع الورشة. هو غريب عن البلد ولا يجد مؤسّسة تؤويها. والمدرسة؟ المدرسة النقّالة لم تتوفّر بعد.

ابتسم بمرارة وهو يردّد:

– الله كريم... الله يدبّر الجميع.

جمعتُ شجاعتي واقترحت عليه أن أحتضنَ منى. أن تعيشَ عندي مِثلَ ابنتي. أخبرته أنّي أقيم وحدي وليس لي أولاد. لكنّ القدر بعث إليَّ بهذا الملاك.

قلت له إنّ منى هبطت عليّ من السماء، لا من ورشة العمل، وبفضلها تحوّلت الصخورُ في حديقتي إلى فراشات.

ولم أُصدِّقْ ما سمعتهُ أذناي. لم أصدّقه حين قال لها:

– هذه السيّدة تدعوك لتسكني في منزلها.. هل تودّين ذلك يا منى؟

تأمّلتْني الطفلة طويلًا، ثمّ نقلت عينيها إلى اللوحتين المطروحتين على الأرض بقربي، وإلى وجه أبيها وهزّت رأسها بالإيجاب.

أضاف أبوها:

– أنا باقٍ هنا مدّة شهرين. إذا شعرتِ بأيّ انزعاج، أُعيدك لتنامي معي في الورشة.

وهزّتْ منى رأسها موافقة. وعاد أبوها يسألها:

– ترافقين السيّدة الآن، أم تنتظرين حتّى المساء؟

ولأول مَرَّة سمعت صوتها واضحًا مليئًا بالثقة:

– الآن...

منذ شهرين ومنى تعيش معي. وفوق جدار غرفتها علّقتْ اللوحات التي رسمتُها في فصل الربيع. تحوَّلتْ جدرانُ الغرفة إلى حديقة طيور وحيوانات، وسجّلتُ اسمَها في معهد قريب، وحين تعود إلى البيت، نخرج معًا إلى الحديقة، ونتبارى بالرسم.

أحيانًا كثيرة أحسُّ بأنّها تتفوّق عليَّ بمزج الألوان. في لمسات فرشاتها نضارة وعفويّة، وفي ألوانها قوّةٌ خارقة...

منذ شهرين ونحن نعيش هذا الحلم الورديّ الرائع...

وعندما تشرق شمس الغد، سوف ينتهي الحلم.

لقد أتمَّتِ الورشة بناءَ «الفيللا» وسوف تنتقل إلى بلد آخر.

والفراشة الحلوة فضَّلت الرحيل مع أبيها...

1975

الأعجوبة

محمولةٌ فوق غيمة.

ومعها يَرفُّ زغاليلها الثلاثة: «سامر»، «ليلى» و«نديم».

الأرضُ موطئ لقدميها، والفضاء قبّعة ترتديها بزهو، والشمس تتغلغل في ثنايا شعرها... شمسُ حزيران الذهبية.

والأشجار تتّكئ الواحدة على كتف جارتها، وتحنو الأغصان رؤوسها في حزن وارتباك.

لماذا تحزن الأشجار والزغردات تملأ الأجواء؟

تساءَلَتْ: «منْ أين تأتي تلك الزغاريد الملوّنة؟»...

وفكّرت في أنّ الجنَّ يحتفلون بواحد من أعراسهم الأسطورية في زوايا المدينـــة. والمدينة تفتح لها ســـواعدها، تضمّها، وتمدُّ شوارعها بالترحاب...

المدينـــة اليوم كما لم تعهدها من قبل. تبدو كلوحة تجريديّة. تبدو أرضًا رماديّة مســـطّحة ترتفع فوقها عمارات مقفلة الأبواب والنوافذ، وتكسوها أشعَّة الشمس.

وشـــمس ذلك الصباح تنحدر من علاها بتثاقلٍ، مثل جســـم أضناه التعب.

أَصغر أطفالها، «نديم»، يستطيع أن يرسم مثل تلك اللوحات.

ضغطت كفَّ نديم بأصابعهـــا النديّة، فقرّب وجهه من ثوبها، يطلب الحماية.

وسألتها ليلى:

– أيـــن ذهب الناس، يـــا ماما، الناس الذين كنّـــا نلتقيهم في الشوارع؟

أجابت الأم بصوتٍ حياديّ:

– ربّما ذهبوا إلى العرس.

– عرس من؟، استفهمت ليلى.

وردّت أمها وعيناها تلاحقان جسمًا اخترق الفضاء كالبرق:

عرس الجنّ.

صمتت ليلى من دون أن تفهم. أو ربّما فهمت أكثر ممّا يجب.

وتدخّل سامر شارحًا لأخته، وهو يشير إلى الجسم المتحرّك:

– إنّه صاروخ.

ابتسمت أمّهم وقالت:

– هذا واحد من طيور الجنّ. أَوَلم أخبركم قصّته؟

انشـــرح صدر نديم لما سمعه، فطلب ببراءة سنواته الخمس، وألَحَّ على أمّه لتخبره من أين جاء هذا الطائر.

فضغطت الأمّ يده من جديد ثـمّ انحنت وطبعت فوق جبينه قبلة مُطَمْئِنة وهي تتمتم:

– أخبرك فيما بعد.

وتابع الرفُّ مسـيرته مأخوذًا بما يسـمعُ ومـا يرى، أو ما لا يرى...

كانت الأصداء محطّات الوقف والتنقّل أصداء «العرس» الذي يُقيمه الجنّ في الزوايا الخفيّة من المدينة!

***

قبل ساعة طرقت سعاد باب بيتها، البيت الذي كانت هي صاحبته ذات يـوم؛ أو، بالأصح، قبـل أربعة أعوام، حين كانت تشـارك الرجل فيه حياة راضية، مترعة بالمحبّة والهناء...

ذات يوم، قبل أن تصاب بصدمة أفقدتها وعيها...

وحين عاد إليها الوعي اكتشـف الطبيـب أنّها فقدت توازنها العقلـي، فأُخضعت للعـلاج، فترة طويلة، وبقيـت خارج حدود المعقول...

الجسم صحيح، لكنّ العلة تكمن في تلك التجاويف الرمادية الغامضة، وكانت لها شحطات صحوٍ وإشراقٍ ينسى فيها المقرَّبون أنّ مسًّـا أصاب عقلها، لكنّها لا تلبـثُ أن تعودُ وترتمي في تلك

الهاوية المرعبة من العذاب النفسي، فتصرخ، وتحطّم كلَّ ما تبلغه يداها، ولا توفّر حتّى نفسها...

حـاول زوجهـا أن يتكيّف مع الوضع الجديد، ويسـاعدها. حاول كثيرًا، لكنّ المشـكلة تعدّت مساعدته، وكادت أن تجرف معها المنزل والأطفال، الزغاليل الذين ما كان عمر كبيرهم يجاوز الأربع سـنوات. وأصدر الطبيب، بالتالي، حكمه على مسـتقبل الأسرة.

حالة سعاد تستوجب إبقاءها في المصح؛ وترك الباقي للأيام الآتية والمعجزة الإلهية.

ولم تحلَّ المعجزة.

فسـعاد مقيمةٌ منذ أربع سـنين، وحالتُها تبقى شِبْه طبيعيّة ما دامـت ثابتة في أجوائها المألوفة، بين غرفتهـا، والحديقة وعيادة الطبيب. أمّا إذا انتقلت من هـذا الحِضْن الدافئ، فلا أحد يدري ما تكـون العاقبة... وقبل عام فقط، سـمح لها الطبيب بأن تزور بيتها في أثناء عطلة الأسبوع، مُتَوَخِّيًا أن يعيدها ذلك إلى التصرف الطبيعي تدريجيًّا.

واجتهد الزوج في أن يجعل سـاعات اللقاء مُريحة وطبيعية، تسـتفيد منها الأمّ وأطفالها. كما تولّت العناية بالصغار وحمايتهمْ مربّيةٌ قادرة على تحمّل المسؤولية الجسيمة.

سنةٌ كاملة، لم يحدث في أثنائها ما يُعكِّر صفاء الأسرة؛ وبات الجميع يألفون هذه الحياة. واعتبر الأطفال أنَّ لهم أُمَّا تربّيهم؛ تطعمُهم، تغسلُ أجسامهم وتسهر على العناية بحاجاتهم... وأُمَّا ثانية تزورهُم أيّام العُطل والأعياد.

ولمّا عبّرت ليلى عن ذلك الوضع لأبيها، أعجبته الفكرة برغم ما غَرستْ في صدره من حزن، وردّد بينه وبين نفسه: «طوبى للصغار!»، وتمنّى لو كانتْ له سذاجة ليلى ليتقبَّلَ الوضع كما تقبلهُ هي.

***

واليوم! اليوم ليس يومَ عطلة! ومع ذلك أقبلت سعاد لتزور أولادها ولم تسأل عن زوجها. هو مسافر منذ أسابيع، والأولاد في البيت محكوم عليهم بالبقاء خلف الأبواب المغلقة. وهم يجدون لدى أمّهم الأولى خير عناية...

فتحَ الباب كبيرهُم، سامر، فهجمت عليه أمّه وقبّلته في وجنتيه، وغمرته وشدَّت حتّى كادت تعصرُ جسمه الطريّ، وكأنها تعوِّض بذلك من حرمان الأيام الماضية. ثم أقبلت ليلى تحجُل على قدمٍ واحدة وترنّم:

– ماما... ماما. جاءت ماما.

وتبعها نديـــم. والتقى الثلاثة بين ذراعيهـــا فغمرتهم بحرارة. وكانت المربية تقف على باب الردهة، تتأمّل ما يجري أمامها غير مصدّقة أنّ المرأة تجرَّأت على الخروج في يوم كهذا، خرست فيه زقزقة العصافير وجمدت حركة الحياة. ولكي تقنع نفسها بواقعية المشهد طرحت سؤالها المرتبك:

– كيف استَطَعْتِ الوصول يا ست سعاد؟

ابتسمت المرأة الابتســامةَ الجواب التي قابلت بها ممرّضتها حين اعترضت على خروجها، وأصرّت عليها لتبقى في المصحّ... لقد اكتفت بالابتسام. وكانت تبصرُ من البعيد وجوهَ أطفالها تَشعُّ كالمرايا، وتُشــرقُ مثل الكواكب المعزولة في كون قصيّ. وكانتْ عيونهم ترفُّ كالفَرَاش حولها، تناديها...

كَرَّرت المربية سؤالها:

– هل كانت الطريق سالكة؟

ومن جديد رسمت المرأةُ بسمتها الغامضة فوق وجهٍ حيادي؛ فهي لا تذكر الطريق، ولا تفهم هذه اللغة التي تستخدمها المربية. فما معنى كلمة «سالكة» هذه؟! ما معنى الخطر الذي يتحدّث عنه الآخرون ويخيفونها به؟ ما معنى؟...

قالت للمربّية:

– أنا الآن بينكم، مشتاقة إلى أولادي.

قادوها إلى غرفتهم الصغيرة وهم يهزجون. كانت النوافذ مغلقة، والستائرُ مسدلة. وأخبرها سامر أنّ هذه أوامر المربّية. منذ أن سافر أبوهم لم يغادروا البيت. وهو خارج البلاد لتصريف أعماله. وبدأت الاضطرابات بعد سفره بيومين. قال لها إنّ الحيّ اشتعل فجأة وصارت السماء تمطر رصاصًا ودخانًا أسود يخنق الورود.

أصغتْ إليه وكأنّها تسمع صوتًا آتيًا من وراء أجيال وأجيال..، ثمّ اقتربت من النافذة وأزاحتِ الستائر وهي تُردِّدُ:

– لتدخل الشمس... الشمسُ صديقة حلوة تحمل إلينا الخير.

صمتَ الصغار لا يدرون ما يفعلون. كانت إرشاداتُ المربّية صريحةً واضحة: «لا نفتح الأبواب والنوافذ. لا نخرج إلى الشرفة. لا نطلُّ من النافذة. حين نسمع إطلاق الرصاص نهرع إلى الممشى الداخلي، إلى بطانة المنزل. إذا قَويتِ الانفجارات نهبط مع الجيران إلى الملجأ».

حفظوا الوصيّة جيّدًا؛ منذ عشرة أيام وهي تردّدها على مسامعهم مع شروق كل شمس.

وأبوهم لم يتمكّن من العودة. اكتفى بالاتّصال التليفونيّ. مخابراته كانت الأمل الذي يربطهم بالأمن. صوته رجاءُ الأيّام المقبلة. ومخابراته تأتي في المساء فتخفّف ثقل النهار الغارب.

والآن جاءت أمّهم فخرقتِ الأوامر وخرجت على النظام.

شـــعر الثلاثة بأنّهم يقفون معها في صـــفّ واحد للاعتراض.

وعبّر سامر عن إرادة الجميع بقوله:

– ماما «رتيبة» لا تسمح بذلك.

ولم تُسجِّل أمّه الملاحظة، بل تابعت خطّتها بإصرار:

– ما رأيكمْ في أن نخرج للتنزه؟

فتحـــت ليلى فمها لتحتجَّ فأطبق عليه ســـامر براحة يده وهو يُثنّي:

– فكرة عظيمة، بشرط ألّا نخبرَ ماما رتيبة.

قالها همسًـــا وهو يُمســـك بيد أمّه وينسلّ معها إلى الممشى، وخلفهما مشت ليلى ثمّ نديم. ولم ينسَ المحتالُ الصغير أن يتركَ المذياعَ مفتوحًا على موسيقى جاز صاخبة غَطَّتْ عملية الهرب.

وحين أقبلت المربّية لتتفقّد حالة الصغار شـــعرتْ، بحدسها، أنّ الدفء البشري قد تلاشى من الدار، والذي تسمعه ليس سوى ذبذبات آليّة لأصوات بعيـــدة. فتحت الباب وجمدت عند العتبة. الســـتائر مشـــرّعة، والباب الخارجي مفتوح، والشمس، والنور... ولكن، أين الأولاد؟!

انتابها رعب هدَّ حَيْلها حين لم تجدهم على الشـــرفة. ومرّت في بالها خاطرة سوداء: هل عاودتْ سعاد إحدى نوباتِها العصبية، فقذفت بنفسها وبأولادها إلى الخارج؟!

أطلّت تتميّزُ الشارع فلم تجد أثرًا لإنسان. وبقي الرصاص يئزُّ في أذنيها، يخترق حواسَّها، يسلبها القدرة على الحركة والتفكير.

هرعت إلى الباب الخارجي، ثمّ تَدحرجتْ على السلم وهي تنادي: «سامر، ليلى، نديم»...

لم يكن هناك من يجيب سوى نغم متقطّع لرصاص ينطلق من الجهة المقابلة. ولم تَدْرِ، في ذروة ارتباكها، كيف تتصرّف، وكان أوّلَ ردود فعلها أن راحت تطرق أبواب الجيران. وكان جواب الجميع سؤالًا واحدًا:

– من يجرؤ على الخروج تحت وابلِ النار؟

عادت إلى الدار وجلستْ تبكي، وتستعدّ لمزيد من دموع الندامة ومشاعر الحزن واللوعة.

لم تدرِ كم مضى من الوقت وهي غارقة في الصمت والدموع، وغارقة في بحر من الخوف والهربِ الذهني.

ماذا ينتظرها في الساعات المقبلة؟

ماذا تقول لأبيهم إذا اتّصل يسأل عن أولاده أو طلب أن يكلّمهم كما اعتاد أن يفعل في الأيّام السابقة؟.. ماذا تقول له؟ كيف تتصرَّف؟

الأسئلة تنصبُّ فوق رأسها كالرصاص. الشكوك تنفذُ إلى خلايا روحها كالإبر، قلبُها يخفق كلّما دوّى انفجار في الخارج.

تمنَّت لو يتوّقفُ ذلك الخافقُ لتستريح. لم تعد لها قدرة على الاحتمال... لم يعدْ لها ملجأ.

رفعت رأسها تستنجد بأحد، فطالعتها الجدرانُ الصامتة والفراغُ الغبيّ.. استدعت طاقاتِها النائمة، إيمانها، حاولت أن تُردِّدَ صلاتَها الخاصّةَ بأوقات الضيق، فأحسَّت أنّ لسانها مُعتَقَل، وذاكرتَها تمتدّ كصحراء قاحلة لا ماء فيها ولا خضراء... ذاكرتُها تحوّلت إلى جدار بلا نوافذ ولا أبواب.

أغمضت عينيها ونامت على الكرسيّ في مدخل الدار، نامت نوم من لا يرجو اليقظة، وأبصرت في منامها أحلامًا غريبة. رأت أطفالًا يركضون والنار تلاحقهم، وأطفالًا فوق صدور أمّهات اكتست وجوههنّ بالرعب. ورأت نساء ورجالًا عاجزين، تكوَّموا بعضهم فوق بعض، وراحوا يبكون ويصرخون والكون مفتوحَ مثلَ أشداق الهاوية. ولا أحد يردّ على البكاء والصراخ. لا أحد يجيب. حاولت أن تمدَّ يدها إلى أولئك العاجزين، أن تخلّص الأطفال وتحملهم بعيدًا عن أشداق اللهب، حاولت أن تنهض من مكانها وتسارع إلى نجدتهم، لكنّ الكرسي تحوَّل تحتها إلى حقل مغناطيسي فراح يلتصق بها ويسمِّرها في مكانها. وظلَّ الكرسي متشبّثًا بها حين دوّى ذلك الانفجار الرهيب، وأبصرت على أثره فجوة حمراء انفتحتْ في الفضاء أمامها وراحتْ تمطرُ ألسنةً من نار.

***

حين استيقظت بعد ساعات، تلفتّتْ حولها، فإذا الألوان كلّها، قد تحوّلت أمامها إلى لونٍ واحد هو بدايةُ الألوان...

فتحت فمها لتســأل أين هي، فأطبقته يد فتاة متّشحة بالبياض كانت واقفة بقربها، وهمستْ شفتا الفتاة في أذنها بلطف:

– احمدي الله على السلامة. كان خلاصك أكبر أعجوبة.

حزيران 1975

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفهرس

الينبوع 5
وسَقط المَطر 13
اللغْنة 23
بقيَت الذكرى 33
اللؤلُؤة 41
والزنابق تبحث عن الحبّ 51
السَّوط 61
الصوت والصدى 69
حُلم صَغير 79
الموجة التاسعة 91
الإنْتظار 109
القحْط 127
مِن أجل عَينيها 135
كسْرة خُبز 151
وصارت الصخور فراشات 159
الأعجوبة 171

الينبوع... وهذا أثرٌ جَديد تُقدّمه إملي نصرالله إلى قُرّاء القِصّة العَربيَّة عَلى اختِلاف أوطانِهم واتّجاهاتِهم... وَهي إذ تُتابع مَسيرتَها القصَصِيَّة الصاعِدَة، إنَّما تؤَكِّد عَلى المَلامِح الأساسِيَّة لأدَبها ذي النزعَة الإنسانيَّة المضيئة، والنّسج الفَنّيّ والجَماليّ المتَميّز.

بلَفتَةِ المُبدع تَقتَنصُ الكاتِبَة هُنَيهَة الحالَة-الفِعل. وبريشَةِ المُبدع تجسِّد تلكَ الهنيهَة بَراعة في السّرد، وَمَهارة في الحبك، ونَضَارة في الأداء، وشَفافِيَة في النّفاذ والرّؤيا.

في أقاصيص الينبوع إغناءٌ لِحالاتِ الوُجود الإنسانيّ، ودَفع لها في اتّجاهِ الضّوء وَالعُمق... وفي أقاصيص الينبوع إمتاعٌ فنّيّ يحيلُ المعاناة شُعلَة دائِمَة اللهب وَالسُّطوع...

ومن الينبوع تتفجَّرُ الحياة...

مكتبة
t.me/soramnqraa

إملي نصرالله (أبي راشد) من الروائيّات الرائدات. عملت في الصحافة، ثمّ غلب عليها الأدب فانصرفت إلى كتابة الرواية والقصّة وروايـة الفتيان والأطفال والسيرة. أكثر ما شغلها هو موضوع الهجرة فكانت فيه رائدة. تُرجم الكثير من كتبها إلى الإنكليزية والألمانية والدانمركية والفنلندية والتايلندية. لا تزال الصحافة جزءًا من مشاغلها، إضافة إلى الأدب.

يوم المجموعة القصصية .. #3

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان A.